أميلي نوتومب

ذهول ورعدة

الرواية الفائزة بالجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية 1999

ترجمة : أبو بكر العيادي

تقديم : رمزي بن رحومة

رواية



أميلي نوتومب

ذهول ورعدة

رواية

ترجمة: أبو بكر العيادي

مسكيلياني للنشر

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

ذهول ورعدة

الكاتبة: أميلي نوتومب

عنوان الكتاب: ذهول ورعدة

ترجمة: أبو بكر العيّادي

تقديم: رمزي بن رحومة

تدقيق: شوقي العنيزي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

ر.د.م.ك: 6-54-833-9938-978

الطبعة الأولى: 2016

مصعدان لحكاية واحدة

«على قدر البساط تُمدّ الأرجل». لطالما وقفتُ أمام هذه العبارة من موروثنا الثقافيّ حائرا، متسائلا عن مدى صحّتها في عالم الأدب القائم على التجاوز، حتى كانت الإجابة وأنا أقرأ «ذهول ورعدة» لأميلي نوتومب التي مدّت في بساطها السرديّ، على قِصَره، إبداعا سيظلّ يتطاول باستمرارٍ ما دام في العالَم قارئٌ شغوفٌ وناقدٌ مُتَبصّر.

وللبصيرَة في رِوايتِنا حضور، وإلّا فكيف انتهت كاتبتُها إلى ما ينتهي إليه كِبارُ المُهندسين إزاء الفضاءاتِ الضئيلة المساحة، يتجنّبون رفع جُدرانِ التقسيم فيها خشْية مَزيد التضاؤل، مُكتَفينَ بخَلق وحَدات بَصَريّة مُختلفة عبْر تنويع قطع الأثاث والدّيكور، فإذا بالتّقسيم الذهنيّ للفضاء يُغني عن نَظيره المادّي. فَهلْ اقتصار «نوتومب» على فضاءِ واحدٍ مسرحاً لمُجْرَياتِ الأحداثِ إلى عَفْوِ الخاطِر يُعزى أم إلى حُسنِ التّدبير؟ وما أشبه الرّواية التي بين أيدينا بالفضاءات سالفة الذّكر، وشخوصها والأحداث بِقِطعِ الأثاث والدّيكور.

يُفتَحُ المَشهدُ الأوّل على مِصعد، والمِصعدُ على الطّابق الأوّل من عمارة «يوميموطو» مقرّ الشركة الحاملَة لذات الاسم. هناك تُلفَظُ البَطلة/الراوية، ولَسْنا نعلم عنها إلّا ما أَوجزت من تَذَيُّلِها قائمة تَراتُبيّة العمل المؤلَّفة من خمسة أسماء، أي أنّها مرؤوسة من الجميع وليست رئيسةً لأحد! كذلك تبدأ رحلة السّرد، ليكتشف القارئ وهو يتقدّم في القراءة باطّرادٍ، كم كان الاستهلال موفّقاً. فالمِصعد

حاضرٌ في النصّ، ينقُلُ البطلة إلى مصيرها المحتوم، فائض عن حدود القَصّ، منه استلهمت الكاتبة تقنيتَها الأساس: الثِّقل وضديده، يتحرّكان في انتظام، ثِقلُ السرد يخبر عمّا جرى، فينزل بالبطلة إلى أسفل سافلين، وثِقلُ الفنّ بالحبكة يُعنى، فيَرتقي بالرّواية وصاحبتها إلى مصافّ المشاهير، ولا غُلُوَّ في التّأويل. أوَليّست تجربة الانحدار الوظيفيّ لبَّ الحكاية، فصلاً من حياة الكاتبة صميمًا، نقلتهُ لنا أدبا خالصا فسلخت النجاح من الفشل! والآنسة «موري»، رئيستُها المباشرة في العمل، ألا تنتمي إلى عالَم «يوميموطو» القاتم المُذلّ؟ بل وَمَقامُها منه مقام المِعولِ من الحُفرة، فما بالها إلى خارجه تنزح؟ فتهنّئ بالنّجاح «نوتومب» كاتبة الرواية، وهي التي أسرفت في إهانة «أميلي» بطلة الحكاية، لو لم يكن المتن والحاشية مترابطين. وتلك مَزيّةُ أدب السيرة ـ أو ما شابهها ـ وسِمتُه الأجلّ.

وإن يكن من بطلٍ للرواية خفيٌّ، غير أبطالها الظاهرين، فهو الكتابة. والبطولة هنا عودةً إلى الأصل: إتيان الخارق يُيَسّرُ المُستحيل... وللقلم سحره المُبينُ ولا طلاسِمَ، بحبر الخيبة يكتب الأمجاد، إذا تجلّى. ومن جُثث الخُسران الهامدةِ يُنهض الحياة سليمةً معافاة. صِنْوُ الدّهر في المشيئة، وقشّة الغريق، بها تعلّقت المُوظّفة المسكينة منظّفة المراحيض فحملتها إلى شاطئ النجاة.

النجاة، ممَّ؟ وممّن؟ حتما ليس من العمل في شركة الاستيراد والتصدير وجحيمها، فقد غادرته قبل أن تبدأ مغامرتها مع الكتابة، وإنما من خطرين محدقين: أوّلهما انعدام الثقة في الذات ومؤهلاتها الطبيعية، طريق إلى الاضمحلال أكيد. وثانيهما أن يطول وقوفها عند عتبة اللُّبسِ حَيْرى تَطْرُقُ بابا لليقين لا يُفْتَحُ، فتفقد إيمانها بتنافر المتناقضات وتَسْتَوي عندها الأنوار والظُّلَمُ «اتضح أن رئيس معقل

التّعذيب حيث أُسَامُ كلّ يوم إهانات عبثية وأتعرّض لكل أنواع الاحتقار، سيد هذا الجحيم، هو ذاك الإنسان الرائع ذو الروح السّامية!... أيّ لغزٍ هذا؟ هل يمكن أن يبسط الرَّبُّ سلطانه على الجحيم؟!»

نعم، أي لغز هذا؟ ولن يهتف بمثل ما هتفتِ البطلةُ إلاّ سليمُ الحسّ نقيُّ السريرة. ولا أظُنُّني مجانبًا للصواب إذا قلت إنّ الفتاة «أميلي» ذات الأصول البلجيكية ألصق انتماءً إلى روح الشرق، بل وإلى روح اليابان الأصيل من جميع العاملين في «يوميموطو» الرازحين تحت نير العبودية، عبودية النظام وإن خلا من المنطق. ولا سلطان سوى رأس المال، تؤيّده حسابات الربح والخسارة، وجرد الحقل والبيدر، ولكُلٍّ نصيبه من الأمر والائتمار.

ولست أوافق الرأي المتعلّق بالسيد «نيتشي» وموقفه النبيل. فإنما هو استثناء للقاعدة مؤكّد. ولنا في ما لحقه جرّاء ذلك من أذًى، عبرةٌ ومثال. وما تأجيل ترقيته إلاّ حجر الراعي يرمي به الخروف الشارد ليعيده إلى القطيع. لذلك لم نر منه تظلّما صريحا أو تشكيكا في عدالة النظام القائم، ولعلّه في خضوعه واعتذاره عن ذنب لم يقترفه صورة حيّة لاندحار الفرد أمام هيمنة المؤسّسات، وما أكثر وجوهه في بلد آلى على نفسه أن يَرُودَ عصر «الرّقمنة»، فأوفى، حتى تبلّد حِسُّهُ.

وحدها أميلي نشاز في سمفونية «التشيئة» مضبوطة الحركات والسكنات. أما رأيتم إصرارها على حفظ بيانات العاملين في الشركة عن ظهر قلب لا لشيء إلا لأنّها تحمل بين طيّاتها دفءَ «البشريّ». وسعادتها بتوزيع البريد على الموظّفين، مَهَمّة ألزمت بها نفسها علّ الفرصة تسنح فتتمنّى لآخر تلتقيه عيدَ ميلادٍ سعيدًا!!

أمّا قبولها بوضع مهني يزداد سُوءًا يوماً بعد يومٍ فمردُّهُ إلى عدم الاكتراث لا الخضوع. وكلّنا نعلم أن الخاضع متذمّر في سرّه مذعن في

العلن. بينما اللامبالي شخص مشغول بالأهمّ -حسب تقديره- عن المهمّ، كانشغال الناسك بالعبادة عمّا سواها، والعاشق بالمعشوق «بدا لي أنّ السيد صايطو يجدني مكدّرة فلا يزيدني ذلك إلاّ عدم اكتراث. كنت مفتونة بزميلتي، وصداقتُها في نظري سببٌ كاف وزيادة لقضاء عشر ساعات داخل شركة يوميموطو»

ها قد انكشف السرّ وذاع، الحبّ والجمال وما أدراك ما هما! عقيدة الصوفيّ دانت بها البنت ولم تجد إلى إخفائها سبيلا فصدحت بها والنصّ بعد لم يبلغ عتيًّا، عسى القارئ يلتقط الإشارة. فحسبها أن فَعَلَتْ، وحسبنا أن أجْلَيْنَا من القمر وجهه المعتم.

رمزي بن رحومة

تونس في 7 جانفي 2016

كان السيّد هَنيدا رئيسَ السيّد أوموشي رئيسِ السيّد صايطو رئيس الآنسة موري رئيستي. أمّا أنا فلست رئيسة لأحد.

بعبارة أخرى، كنت تحت إمرة الآنسة موري التي كانت تحت إمرة السيد صايطو، وهلمّ جرّا، مع ملاحظة دقيقة هي أنّ الأوامر الصّادرة من فوق، يمكن أن تقفز على الدّرجات الوظيفيّة دون اعتبار لتسلسلها.

أي أنّني كنتُ، في شركة يوميموطو، تحت إمْرة الجميع.

في يوم 8 يناير 1990، لفظني المصعدُ في الطّابق الأخير من عمارة يوميموطو. جذبتني نافذةٌ في عمق البهو جذبَ كوّة مهشّمة بطائرة. لاحت لي المدينة بعيدةً، بعيدةً جدّا، بعدًا جعلني أشكّ في أنّي وطئتُ أرضَها في يوم من الأيّام.

لم يخطر ببالي أنّه كان يتوجّب عليّ أن أتقدّم إلى مكتب الاستقبال. وفي الحقيقة، لم يكنْ يشغلُني أيُّ شيء عدا الانبهارِ بالفراغ والفرجة من البلّور.

وردّني إلى يقظتي صوت أجشُّ نطقَ من الخلف باسمي. التفتُّ فإذا رجلٌ في الخمسين، صغيرٌ ناحلٌ دميمٌ، ينظرُ إليّ في استياء.

سألني:

– لماذا لم تُعْلمي موظفةَ الاستقبال بوصولك؟

لم أجد ما أقول فلم أجبْ بلفظ. نكّستُ رأسي وحنيت كتفيّ، وأنا أقدّرُ أنّي في ظرف عشر دقائق، ودون أن أنطق بكلمة، تركتُ انطباعا سيّئا يوم دخولي يوميموطو.

قال لي الرّجل إنّه يدعى صايطو. قادني عبر عدّة قاعات فسيحة، قدّمني في أرجائها لجموع من البشَر، كنت أنسى أسماءهم حالما ينطِق بها.

إثر ذلك أدخلني إلى مكتب يشغله رئيسُه، السيّدُ أوموشي، رجلٌ ضخمُ الجثّة، مُرعبٌ. وهو ما يدلّ على كونه نائبَ الرئيس.

ثمّ أراني بابا وصرّح لي في لهجة رسميّة بأنّ السيّد هَنيدا رئيس الشركة يوجد خلف ذلك الباب. وطبعا، لم يكن مجرّد التفكير في مقابلته ممكنا.

أخيرا، قادني إلى قاعة شاسعة جدّا يعملُ بها نحو أربعين شخصًا. أراني مكاني الذي يقعُ بالضبط قبالةَ مكتب رئيستي المباشرة، الآنسة موري، وكانت لحظتَها في اجتماع، ولن تلتحق بي إلاّ بعد الظهر.

قدّمني السيّد صايطو إلى الملأ بإيجاز، ثم سألني عن مدى حبّي للتّحدّيات، وكان من الواضح أنّه لا ينبغي لي أنْ أجيبَ بالنّفي فقلت:

- نعم.

وكانت تلك أوّل كلمة نطقتُ بها في الشركة، ومنذ تلك اللحظة وأنا مكتفية بطأطأة رأسي.

«التحدّي» الذي اقترحه عليّ السيّد صايطو يتمثّل في قَبول دعوة شخص يُدعى آدم جونسون لمشاركته لعبةَ الجولف يوم الأحد القادم. كنتُ مطالَبة بتحرير رسالة بالإنجليزية إلى هذا الشخص لإعلامه.

سألتُ بسذاجة:

- من هو آدم جونسون؟

فتنهّدَ رئيسي في ضَجر ولم يُجب. هل كانَ ضلالاً أنْ نجهل من يكون السيّد جونسون أم أنّ سؤالي كان فضوليّا؟ لم أعرف ذلك أبدا - ولم أعرف من يكون آدم جونسون.

بدت لي المهمّة على غاية من السُّهولة. جلستُ وحرّرت رسالةً ودّية: السّيد صايطو يعبرّ عن سعادته بلَعِب الجولف يوم الأحد الموالي مع السيّد جونسون ويرسل إليه تحياته. ثمّ حملتُ الرّسالة إلى رئيسي.

قرأ السّيد صايطو الرسالة، فندّت عنه صيحة ازدراء مقتضبة، ومزّقها:

- أعيدي.

قدّرتُ أنّي كنتُ وديّة أكثر من اللاّزم أو تلقائيّة مع السيّد جونسون فكتبتُ نصّا جافّا محايدًا: السيّد صايطو علم بقرار السيد جونسون، وسوف يشاركه لعبَ الجولف نزولاً عندَ رغبته.

قرأ رئيسي ما أنجزتُ، فأطلقَ صيحتَه السّاخرة، ومزّقه:

- أعيدي.

انتابتني رغبةٌ في سؤاله عن مَكمن خطئي، ولكن كان واضحا أنّ رئيسي لا يقبل الأسئلة، وذلك ما أثبتته ردّة فعله عند استفهامي عن حقيقة المرسل إليه. عليّ أن أجد بنفسي اللغة التي ينبغي أن أخاطب بها هذا الـ «آدم جونسون» الغامض.

قضّيت الساعاتِ المواليةَ في تحرير رسائل إلى لاعب الجولف ذاك، وكان السيّد صايطو يوقّع إنتاجي بالتّمزيق، دون أدنى تعليق عدا تلك الصّيحة الشبيهة بلازمة موسيقية. وكان لزاما عليّ أن أبتكرَ في كلّ مرّة صيغة جديدة.

هذا التمرين يشبه الصيَغ الممكنة من الجملة الشهيرة: «أيّتها الماركيزة الحسناء، عيونك تقتلني حبّا»، وهي جملة لا تخلو من الطرافة[1]. جعلت أستكشف أنماطا نحوية قابلة للتحويل: «لنفرض

(1) وجه الطرافة فيها هو قابلية مكوناتها إلى تغيير مواقعها دون أن يفقد الخطاب معناه مثلما هو الشأن في قصيدة الشاعر التونسي المنصف المزغني: مُرّة قهوتي يا امرأة، يا امرأة قهوتي مرّة، قهوتي مرّة يا امرأة، مرّة يا امرأة قهوتي... (المترجم).

أنّ السيد آدم جونسون يصير هو الفعل، ويصير الأحد القادم الفاعلَ، والجولف المفعولَ به، والسيّد صايطو الفضلة التكميلية؟ يقبل الأحدُ القادم بكل سرور أن يؤدي جونسون الجولف بسيّد صايطويّة. وطز في أرسطو!»

كنتُ قد بدأتُ أجدُ في ذلك تسلية حين قاطعني رئيسي. مزّقَ الرسالة الألف دون أن يقرأها وأعلمني بأنّ الآنسةَ موري قد وصلت.

- ستعملين معها بعد الظهر. في انتظار ذلك، جيئيني بقهوة.

كانت الساعة الثانية بعد الزّوال، وكنت منهمكةً في سلسلة رسائلي انهماكا شغلني عن التمتع بفترة استراحة.

وضعت فنجان القهوة على مكتب السيد صايطو واستدرتُ، فإذا بفتاة ممشوقة الجسم مديدة القامة مثل قوس تُقبل نحوي.

مازلتُ أذكرها إلى الآن، وكلّما ذكرتُها تراءى لي من جديد القوس الياباني الأكثر طولا من قامة رجل. لذلك أطلقتُ على الشركة اسم «يوميموطو» أي «أشياء القوس».

وعندما ألمح قوسا، تتراءى لي، دائما، فوبوكي، أطول قامة من رجل.

- الآنسة موري؟

- ناديني بـ«فوبوكي».

لم أعد أصغي لما تقوله لي الآنسة موري. قامتُها تبلغ على الأقل مترا وثمانين، وهي قامة لا يدانيها إلا قلّة من الرّجال في اليابان. كانت على غاية من الرّشاقة وهيَف القدّ، برغم التصلّب الياباني الذي كان ينبغي أن تلتزم به. ولكن ما أذهلني فيها هو إشراقُ وجهها.

تحدّثني، فأسمع رنين صوتها العذب المفعم بالنّباهة. تريني الملفّات، وتشرح لي طبيعة كلّ ملفّ وهي تبتسم. ولكنّني كنت مأخوذة

بها ولم أتفطّن إلى أنّني لم أكن أُرعيها السمع أصلا.

وبعد ذلك، دعتني إلى قراءة الوثائق التي كانت أعدّتها على مكتبي المقابل لمكتبها. ثمّ جلست وبدأت تعمل، فيما كنت أتصفّح برحابة صدر الأوراق التي طالبتني بتأمّلها. وكانت عبارة عن مدفوعات وإحصاءات.

على مسافة مترين أمامي، بدا منظر وجهها آسرا. جفونها المنكّسة على أرقامها لم تكن تسمح لها بأن ترى أني أتفحّصها. لها أجمل أنف في الوجود، أنف ياباني، ذلك الأنف الفريد، ذو المنخرين الرقيقين اللذين يُمكن تمييزهما من بين آلاف الأنوف. صحيح أنّ اليابانيين لا يملكون مثله جميعا، ولكن إذا كان لشخص ما ذلك الأنف فهو قطعا يابانيّ. ولو كان لكليوباترا مثل هذا الأنف لتغيرت خارطةُ الكون.

عند المساء، أدركت أنّه من الغباء التّفكير في أنّ أيّا من مؤهّلاتي التي انتُدبت بفضلها لم تفدني في شيء، فما أردت في النّهاية سوى العمل في شركة يابانية، وها أنا ذي أعمل في إحداها.

شملني انطباع بأنّي قضيت يوما رائقا، وجاءت الأيّامُ الموالية لتؤكّد ذلك.

بقيت لا أفهم الدور المنوط بعهدتي داخل تلك الشّركة، دون أن أكترث بذلك. بدا لي أن السّيد صايطو يجدني مكدّرة، فلا يزيدني ذلك إلا عدم اكتراث. كنت مفتونة بزميلتي، وصداقتها في نظري سبب كاف وزيادة لقضاء عشر ساعات في اليوم داخل شركة يوميموطو.

سحنتها البيضاء الكامدة في الآن نفسه، هي تلك التي تحدث عنها تانيزاكي[1] جيّدا. كانت فوبوكي تجسّد الجمال اليابانيّ في تمام روعته، إذا استثنينا قامتها المذهلة. وجهها يقرّبها من «قرنفل اليابان

(1) جونيتشيرو تانيزاكي (1886–1965)، روائي ياباني. (المترجم).

القديمة»، رمز الفتاة النبيلة في تلك العصور الغابرة، فإذا وضعناه على هذه القامة الفارهة، صارت منذورة للسيطرة على العالم.

تعتبر يوميموطو من أكبر الشركات في العالم. يدير السيد هَنيدا فرع الاستيراد والتّصدير فيها، وهو فرع يشتري ويبيع كل ما يوجد على سطح الأرض.

كان «كاتالوج» يوميموطو للاستيراد والتصدير نسخةً عملاقة عن كاتالوج جاك بريفير[1] الشهير: من الإمَّنْتال الفنلندي إلى كربونات الصّوديوم السنغافورية مرورا بليفة العدسات البصرية الكندية وإطار المطّاط الفرنسي والقنّب الطوجولي، يكاد لا يفوته أيّ شيء.

المال في شركة يوميموطو يفوق خيال البشر. بداية من تراكم معين للأصفار، تخرج المبالغ عن مجال الأرقام لتدخل مجال الفنّ التجريديّ. كنت أتساءل هل يوجد داخل هذه الشركة كائن يستطيع أن يفرح بكسب مائة مليون ينٌ أو يأسَى لخسارة مبلغ مماثل.

وكان موظّفو يوميموطو كالأصفار، لا قيمة لهم إلا خلف الأرقام الأخرى. كلّهم، باستثنائي أنا، التي لم تكن تبلغ حتىّ مفعول الصفر.

تمضي الأيّامُ وأنا لا أصلح لشيء، دون أن أرى في ذلك ما يضير. يخيّل إليّ أنّي نُسيت، وهو أمر لا يزعجني بالمرّة. كنت أجلس إلى مكتبي، فأقرأ وأعيد الوثائق التي وضعتها فوبوكي تحت تصرّفي. وثائق عديمة الأهمية بشكل صارخ، ما عدا وثيقة واحدة تجدول أعضاء شركة يوميموطو: دُوّنت فيها أسماؤهم وألقابهم وتواريخ ميلادهم وأمكنتها، إضافة إلى أسماء الأزواج المفترضين والأبناء، مع تاريخ المولد لكلّ منهم.

---

(1) تعبيرشائع مستمد من قصيدة «جَرد موجودات» inventaire للشاعرالفرنسي جاك بريفير (1900-1977) يقول في مقطعها الأول: حجر/بيتان/ثلاثة أطلال/أربعة حفّاري قبور/حديقة /أزهار. (المترجم).

لم يكن لتلك المعلومات في حدّ ذاتها ما يثير، ولكن حينما يشعر المرء بالجوع، يسيل لكِسْرة الخبز لُعابُه: في حالة الكسل والعطالة التي تدنّى إليها دماغي، بدت لي تلك القائمة شهيّة مثل مجلة لنشر الفضائح. والحقيقة أنها الوحيدة التي كنتُ أفهم ما فيها.

ولكي أتظاهر بالعمل، قرّرت أن أحفظها عن ظهر قلب. كانت تحوي مائة اسم. أغلبهم متزوّجون وأرباب أو ربّات عائلات، وهو ما يجعل مهمتي أصعب.

كنت كمن يدرس: كان وجهي بين الحين والحين منكبّا على المادّة، ثم يصبح مرفوعا عنها لأتلو ما حفظت داخل صندوقي الأسود. وحينما أرفعُ رأسي، كان نظري يقع دائما على وجه فوبوكي، الجالسة قبالتي.

لم يعد السيّد صايطو يأمرني بتحرير رسائل إلى آدم جونسون أو غيره. بل إنه لم يعد يأمرني بشيء، عدا إحضار فناجين القهوة.

أمر عاديّ، حينما يبدأ المرء حياته الوظيفية في شركة يابانية، أن يستهلّها بـ«الأوشاكومي» - «وظيفة الشاي الجليل». لذلك تقلّدت تلك المهمّة بشكل جدّي لا سيّما أنّها كانت كلّ ما عُهد به إليّ.

وفي وقت وجيز، صرت أعرف عادات كلّ واحد: للسيد صايطو قهوة في الثامنة والنصف صباحا بالتحديد. للسيد أوناجي قهوة باللبن وقطعتان من السكر في العاشرة صباحا. للسيد ميزونو طاس من الكوكا كل ساعة. للسيد أوكادا شاي إنجليزي مع سحابة من اللبن في الخامسة مساء. لفوبوكي شاي أخضر في التاسعة صباحا، قهوة عند الزوال، شاي أخضر في الثالثة بعد الظهر، وقهوة أخيرة في السّابعة مساء - فتشكرني كل مرة في أدب جمّ.

هذه المهمّة الجليلة اتّضح أنّها الأداة الأولى لضياعي.

ذات صباح، أفادني السيد صايطو أنَّ نائب الرئيس يستقبلُ في مكتبه وفدا هامًا من شركة صديقة:

- قهوة لعشرين شخصا.

دخلت مكتب السيّد أوموشي أحمل صينيّتي الكبيرة، وتصرفت كأحسن ما يكون: سقيتُ كل واحد فنجانه في خشوع تامّ وأنا أرتّل، مغمضة العينين، منكّسة الرّأس، أرقّ العبارات المعهودة في مثل هذا المقام. يقينا لو وجد وسام الاستحقاق الأوشاكومي لأسند إليّ.

بعد ساعات طويلة انصرف الوفد، وإذا بالرجل السّمين، السيد أوموشي، يصيح بصوت مجلجل:

- صايطو- صَنْ[1]!

أبصرتُ السيد صايطو يهبّ من مكانه ممتقع الوجه، وهو يُسرع نحو عرين نائب الرئيس. وسرعان ما ارتفع صراخ الرّجل السّمين يزمجر خلف الجدار. لم نكن نفهم ما يقول، ولكن بدا أنه ليس ممّا يَسرُّ.

عادَ السيد صايطو بوجه متشنّج. أحسستُ نحوه بدفقة ساذجة من العطْف وفي البال أنّه يزن ثُلث خصمه، وإذا هو يناديني في لهجة سخط.

تبعته إلى مكتب خال. قال لي في لسان معوجّ من فرط الغَضب:

- لقد أحرجت وفد الشّركة الصديقة حرجا ما بعده حرجٌ! قدّمت القهوة بعبارات توحي بأنك تتكلمين اللغة اليابانية بحذق!

- ولكني لا أتكلّمها بشكل رديء، صايطو- صَنْ.

- ولا كلمة! بأي حقّ تدافعين عن نفسك؟ السيد أوموشي مغتاظ

(1) «صَن» وردت باليابانية في الأصل: تُقال للذكر والأنثى على حد سواء بعد ذكر الاسم، وتقوم مقام سيد، سيدة، آنسة عند المناداة من باب الاحترام. أمّا «صاما» فتُقال لمن لا تربطنا به أيّة علاقة من أي نوع كانت. (المترجم).

منك كثيرا. لقد خلقت جوّا عكرا في اجتماع هذا الصباح: من أين لشركائنا أن يحسوا بالأمان في وجود امرأة بيضاء تفقه لغتهم؟ من الآن فصاعدا، لن تتكلمي اليابانية.

نظرت إليه بعينين مذهولتين.

- نعم؟

- ما عدت تفهمين اليابانية. واضح؟

- ولكن يوميموطو انتدبتني لمعرفتي بلغتكم!

- لا يهمّني. آمرك بألا تفهمي اليابانية بعد اليوم.

- مستحيل. لا أحد يمكن أن يطيع أمرا كهذا.

- ثَمّة دائما طريقة للطاعة. وهو ما ينبغي أن تفهمه العقول الغربية.

«ها قد وصلنا»، قلت في نفسي قبل أن أستأنف:

- قد يكون العقل الياباني قادرا على إرغام نفسه على نسيان لغة ما، أما العقل الغربي فلا يملك وسائل لذلك.

بدت هذه الحجّة الخرقاء مقبولة لدى السيد صايطو.

- حاولي. تظاهري على الأقلّ. لقد تلقّيت أوامر بهذا الصّدد. اتفقنا؟

كانت النبرة جافّة قاطعة.

قد أكون في حال اضطراب وذهول حين التحقت بمكتبي، لأن فوبوكي نظرت إليّ نظرة جمعت بين الرقّة والقلق. فبقيت خائرة وقتا طويلا أتساءل أيّ موقف أتّخذ.

أن أقدّم استقالتي كان أكثرها منطقية، غير أنّي لا يمكن أن أقتنع بتلك الفكرة. ليس في المسألة ما يخلّ بالشّرف في عيون الإنسان الغربي، أما في عيون الياباني، فهو أمر مشين. لم يمض على وجودي في

الشركة سوى شهر تقريبا، والحال أني وقّعت عقدا بسنة. والانصراف بعد هذه المدة القصيرة سوف يجعلني محلّ خزي وعار في عيونهم وفي عيون أهلي.

ثم إنّي لا أرغب إطلاقا في التنحّي. لقد تجشّمتُ عناء كبيرا للانضمام إلى هذه الشركة: درست لغة طوكيو في إدارة الأعمال، وخضعت لاختبارات. صحيح أنه لم يكن مطمحي أن أصبحَ مرجعا في التّجارة الدولية، ولكن كانت لي رغبة دائمة في العيش بهذا البلد الذي أكنّ له ما يشبه التقديس منذ الذكريات المثالية الأولى التي أحتفظ بها من طفولتي.

سأبقى.

ومن ثَمّ، ينبغي أن أجد وسيلة للامتثال لأمر السيد صايطو. سبرت عقلي بحثا عن طبقة جيولوجية تلائم فَقْدَ الذاكرة: هل تُوجد بقلعة جهازي العصبي بعض المواقع المهملة؟ للأسف، كان المبنى يحوي نقاط قوة ونقاط ضعف، مراقبَ وشقوقا، حفرا وخنادق، ولكن لا شيء قد يتيح ردم لغة كنت أنوي استعمالها بغير انقطاع.

إذا تعذّر نسيانها، فهل لي أن أخفيها على الأقلّ؟ لو كانت اللغة غابة، فهل كان بإمكاني أن أخفي خلف شجر الزان الفرنسي والزيزفون الإنجليزي والسنديان اللاتيني والزيتون اليوناني ضخامة الكربتوميريا اليابانية التي ستكون في واقع الحال اسمًا على مسمّى؟

موري، لقب فوبوكي، يعني «غابة». ألهذا كنت في اللحظة ذاتها أمدّ إليها نظرة مضطربة؟ لاحظت أنّها لا تزال ترمقني في استفهام.

نهضت وأشارت إليّ بأن أتبعها. في المطبخ تهالكتُ على كرسيّ.

- ماذا قال لك؟ سألتني.

أفضيتُ لها بمكنون صدري. تحدّثتُ بصوت مختلج ينذرُ بالبكاء.

لن أستطيعَ كبْح لساني عن التفوّه بعبارات خطيرة:

- أكره السيد صايطو. إنّه وغدٌ، إنّه غبيّ.

ندّت عنها بسمة واهنة:

- كلاّ. أنت مخطئة.

- هذا أمر طبيعيّ، لأنك طيّبة ولا ترين الشّرّ من حولك. فكّري قليلا، لكي يأمرني بما أمر، ألا يصحّ أن...

- اهدئي. الأمر ليس من مأتاه. كان ينقل تعليمات السيّد أوموشي ولم يكن أمامه خيار آخر.

- في هذه الحالة، السيّد أوموشي هو الـ...

- هو شخص ذو مزاج بالغ الخصوصيّة، قاطعتني. ماذا يمكن أن نفعل؟ إنّهُ نائبُ الرّئيس ولا نملك أمامه حيلةً.

- يمكن أن أحدّث بشأنه الرئيس، السيّد هَنيدا. أيّ نوع من الرّجال هو؟

- السيّد هَنيدا رجل رائع، بالغ الذّكاء والطّيبة، ولكن للأسف الشديد، لا يمكنك التظلّم عنده بأيّ حال من الأحوال.

معها حقّ. كنت أعرف ذلك، فليس من المعقول أن أقفز إلى أعلى السلم الوظيفيّ ولو درجة واحدة، فكيف إذا كانت عدّة درجات كما هي الحال. لم يكن مسموحا لي بالتوجّه إلا إلى رئيسي المباشر، أي الآنسة موري.

- أنت ملاذي الوحيد يا فوبوكي. أعرف أنك لا تستطيعين أن تقدمي لي شيئا يذكر، ولكنّي أشكرك، فمجرّد إنسانيتك تجعلني أحسّ بالراحة.

تبسّمت.

سألتها عن رمز الفكرة[1] في اسمها. أرتني بطاقة معايدتها، تطلّعت إلى رموز الكانْجي[2] وهتفت:

- عاصفة ثلج! فوبوكي معناه «عاصفة ثلج»! جميلٌ جدا أن نُسمَّى هكذا.

- ولدت أثناء عاصفة ثلج. والداي رأيا في ذلك علامةً.

خطرت ببالي قائمة يوميموطو: «موري فوبوكي، ولدت بمدينة نارا في 18 يناير 1961...» كانت طفلةً من أطفال الشّتاء. تمثّلت لي فجأة عاصفة الثّلج تلك على مدينة نارا المهيبة، وأجراسها التي لا تحصى عددا - أليس من البدَاهة أن تولد هذه المرأة الشابّة في يوم ينهال فيه جمال السّماء على جمال الأرض؟

حدّثتني عن طفولتها في كَنْصاي، وحدّثتها عن طفولتي التي بدأت في المقاطعة نفسها، غير بعيد عن نارا، في قرية شوكوجاوا، قرب جبل كابوطو - فغمرتني من ذكر تلك الأماكن الميثولوجية غشاوةُ دمع يكاد يطفر.

- كمْ أنا سعيدة أن يكون كلانا من أبناء كنصاي! هناك يخفِق قلبُ اليابان القديمة.

هناك أيضا خفق قلبي يوم غادرت الجبال اليابانية إلى الصحراء الصينيّة، وكان عمري آنذاك خمس سنوات. ذلك المنفى الأول طبعني بميسمه بشكل جعلني أقبل كل شيء في سبيل العودة إلى هذا البلد الذي طالما خلت نفسي من طينته.

عندما عدنا إلى مكتبينا المتقابلين، لم أكن قد وجدت حلاّ لمشكلتي. صرت أقلّ إدراكا من ذي قبل لما سوف يكون موقعي داخل الشركة.

---

(1) إيديوجرام: رسم يمثّل الكلمة الدالة على الفكرة.

(2) الكانجي: رموز من أصل صيني تؤلف الإيديوجرام.

ورغم ذلك شعرت بنوع من السكينة، لأني كنت زميلة لفوبوكي موري.

كان لزاما عليّ إذن أن أتشاغل وأتظاهر بأني لا أفقه شيئا مما يقال حولي. صرت أقدّم مختلف فناجين القهوة وأقداح الشاي دون أن أتلفّظ بأدنى عبارة من عبارات المجاملة، أو أردّ على كلمات الشكر من كوادر الشركة. لم يعلموا بالتعليمات الجديدة، وهم يستغربون تحول الجايشا البيضاء اللطيفة إلى سمكة شبّوط فظّة أشبه بواحدة من بنات اليانكي.

ما يؤسفني حقا أن الأوشاكومي لم يكن يستغرق مني وقتًا كبيرًا. لذا قرّرت، دون إذن من أحد، أن أتولّى توزيع البريد.

كان ذلك يقتضي مني دفع عربة معدنية عبر المكاتب العملاقة وتسليم كلّ واحد رسائله. هذا العمل يناسبني للغاية. أوّلا، لأنه يستثمرُ معارفي اللّسانية، إذْ أنّ أغلب العناوين مكتوبة بـ«الإيديوجرام»- وعندما يكون السيّد صايطو بعيدا عنّي، لا أخفي حذقي للّغة اليابانية. ثانيا، لأنّي اكتشفتُ أنني لم أحفظ عن ظهر قلب قائمة يوميموطو دون جدوى: كنت لا أكتفي بالتعرف على الموظفين، حتى أدناهم مرتبة، بل أغتنم مهمتي تلك، كلما كانت الفرصة سانحة، لأتمنى لهم عيدَ ميلادٍ سعيدا، لهم أو لزوجاتهم أو أبنائهم.

كنت أقول مع بسمة مقتضبة وانحناءة خفيفة: «هذا بريدك يا سيّد شيراناي. تهانيّ بعيد ميلاد ابنك الصغير يوشيرو الذي يبلغ اليوم عامه الثالث.»

وفي كل مرة أُقابَلُ بنظرة ذهول.

كانت تلك المهمة تستغرق مني وقتا أطول لأني كنت مضطرّة إلى التنقل في كافة أرجاء الشركة التي تتوزّع على طابقين. داومت على استعمال المصعد ومعي عربتي التي كانت تمنحني رباطة جأش محبّبة،

كنت أهوى ذلك المكان، لأن بجواره، حيث كنت أترقب المصعد، فرجة بلّورية شاسعة. كنت أقوم ساعتها بما أسميته «رمي نفسي في مجال الرؤية». ألصق أنفي إلى النافذة وأهوي بجسدي ذهنيا. تكون المدينة تحتي بعيدة جدا، وقبل أن أتحطّم على الأرض، يكون المجال فسيحا أمامي لكي أشاهد أشياء كثيرة.

لقد وجدت ضالّتي. كان ذهني مبتهجا بهذا العمل البسيط المفيد الإنسانيّ، المناسب للتأمّل. وكنتُ أودّ القيام بذلك مدى الحياة.

دعاني السيّد صايطو إلى مكتبه، فتلقيّت توبيخا مستحقّا: لقد اقترفتُ جريمة مبادرة في غاية الخطورة، إذ أسندت إلى نفسي إحدى الوظائف دون استشارة رؤسائي المباشرين. زدْ على ذلك أنَّ ساعي بريد الشّركة الأصليّ، الذي يأتي بعد الظّهر، صار على حافّة الانهيار العصبيّ، وقد بات يظنُّ أنّه على وشك الاستغناء عن خدماته.

- الاستيلاء على عمل الغير فعل سيّئ، قال لي السيد صايطو، وهو مصيب في قوله.

اعتراني أسف وأنا أرى مهمة واعدة تتوقف بمثل هذه السّرعة، علاوة على أنّ مشكلة نشاطي عادت تطرحُ نفسهَا من جديد.

خطرتْ ببالي فكرةٌ بدت من فرط سذاجتي رائعةً: أثناء تنقلاتي عبر الشّركة، لاحظتُ أنّ كلّ مكتب يحوي عدّة روزنامات غير محيّنة إلاّ في القليل النّادر. إما لأنّ الإطار الصّغير الأحمر المتحرّك لم يقع تقديمه إلى مستوى التّاريخ الصحيح، وإما لأن صفحة الشهر المنقضي لم تُقلب.

هذه المرة، لم أنس طلب الإذن:

- هل لي أن أحيّن الروزنامات يا سيّد صايطو؟

ردّ بالإيجاب دون حذر. قدّرت حينئذ أن لي مهنة.

كنت أمرّ صباحا على كل مكتب، فأحوّل الإطار الصغير الأحمر إلى التاريخ المناسب. صار لي عمل، وأصبحتُ مُقلّبةَ روزنامات.

وشيئا فشيئا تنبّه أعضاء يوميموطو إلى مناورتي، فأثار ذلك في نفوسهم ضحكات لا تني تتزايد.

كانوا يقولون لي:

- كل شيء على ما يرام؟ ألا تتعبين من هذا العمل الشّاقّ؟

فأجيب في ابتسام:

- إنه أمر رهيب، يضطرني إلى تناول بعض الفيتامينات.

كنت أعشق عملي هذا. عيبه الوحيد، أنّه لا يشغل كثيرا من وقتي، وإن كان يسمح لي باستعمال المصعد، ويُتيح لي بذلك أن ألقي بنفسي في مجال الرؤية الفسيح. ثم إنه يُسلّي جمهوري الغفير من الموظّفين.

في هذا الصدد، بلغ الأمر ذروتَه عند الانتقال من شهر فبراير إلى شهر مارس. تقديم الإطار الأحمر وحده لا يكفي في ذلك اليوم: كان عليّ أنْ أقلب صفحة فبراير أو أمزّقها.

استقبلني الموظفون في سائر المكاتب كما يستقبل بطل رياضيّ. كنتُ أغتال أشهر فبراير في حركات مقاتلي الصاموراي، أخوض معركة ضارية ضدّ الصورة الضّخمة لجبل فوجي المكسوّ بالثّلوج، الجبل الذي يوضّح تلك الفترة من العام في روزنامة يوميموطو. ثم أغادرُ ميادين القتال، متظاهرة بالإرهاق، مغمورة بفخر عظيم لمقاتل منتصر تحت صيحات «بَنْزاي»[1] التي كان المعلّقون يطلقونها مبتهجين.

وشاع مجدي حتى بلغ السيّد صايطو. كنت أتوقع توبيخا لم تسمع

---

(1) بنزاي (في الأصل عشرة آلاف سنة أو عمر مديد) كانت قديما تستعمل لتقديم تمنيات بطول العمر، ثم تحولت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى صيحة حربية يطلقها الطيارون الكاميكاز في عملياتهم الانتحارية. أمّا الآن فقد فقدت معناها ذاك وصارت تقال فقط للتهنئة. (المترجم).

أذناي مثلَه عن تهريجي. لذلك أعددت دفاعي:

- لقد سمحت لي بتحيين الروزنامات، بادرته بالكلام قبل أن أتلقى فورته.

أجابني، غير غاضب بالمرّة، في نبرة استياء بسيط اعتاد عليه:

- نعم. يمكنك أن تواصلي ولكن كفّي عن الحركات المسرحية، لأنك تشتّتين انتباه الموظفين.

عجبت لبساطة تقريعه، وإذا هو يردِف:

- صوّري لي هذه.

وناولني حزمة من الأوراق ذات قياس A4. كان منها ألف على الأقل.

أودعت الحزمة في لاقمة[1] الناسخة التي قامت بمهمتها في سرعة وتهذيب مثاليين، ثم عدت إلى رئيسي بالأصل والنسخ.

استوقفني.

- نسخك مائلة قليلا عن المركز، قال لي وهو يريني ورقة منها. أعيدي.

عدت إلى الناسخة وفي البال أني قد أكون أسأت وضع الأوراق في اللاقمة. هذه المرة، أبديت عناية فائقة، وجاءت النتيجة جيدة لا تشوبها شائبة.

عدت بـ«تحفتي» إلى السّيد صايطو.

- إنها مائلة هذه المرة أيضا، قال لي.

- غير صحيح! صحت.

- أمر في غاية الفظاظة أن تتفوّهي بهذا لرئيسك.

---

(1) حاوية النسخ الآلي. (المترجم).

- أرجو المعذرة، ولكني حرصت على أن تكون نسخي ممتازة.
- ليست كذلك. انظري.

أراني ورقة خالية من كل عيب.

- أين الخلل؟
- هنا، انظري. توازي الخطوط مع الحافة ليس متطابقا.
- هذا رأيك؟
- ما دمت أقوله لك!

وألقى بحزمة الأوراق في سلّة المهملات ثمّ أردف:

- أنت تستعملين اللاّقمة؟
- بالضبط.
- هذا ما يفسّر المشكلة. لا ينبغي استعمال اللاقمة، لأنها ليست دقيقة.
- سيّد صايطو، من غير اللاّقمة يلزمني ساعات لإنهاء العملية.
- وأين المشكل؟ قال في ابتسام. خصوصا وأنت بحاجة إلى شيء يشغل وقتك.

أدركت أن تلك عقوبتي بسبب مسألة الروزنامات.

اتّخذت لي مكانا أمام الناسخة وكأنّني محكومة بأشغال التجذيف الشاقة. وكنت ملزمة، في كل مرةّ، برفع مصراع الآلة، ووضع الورقة بدقّة، والضغط على الزرّ ثم تفقّد النتيجة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة ظهرا حين وصلت إلى سردابي[1]، وفي السابعة مساء لم أكن

---

(1) استعملت الكاتبة لفظتين للدلالة على مشقة العمل المطلوب منها: الأولى galères وهي جزاء المجرمين المحكوم عليهم بالتجذيف في قيعان سفن الملوك منذ العصور القديمة حتى القرن الثامن عشر، مُصفّدين بالأغلال تحت وقع السياط. والثانية ergastule وهو سرداب المساجين في روما القديمة. (المترجم).

قد انتهيت بعد. كان الموظفون يقبلون بين الحين والحين، فإن كان لديهم أكثر من عشرة نسخ للتصوير، أطلب منهم بكل لطف التفضل باستعمال الآلة الموجودة في آخر الرواق.

ألقيت نظرة على فحوى ما كنت بصدد تصويره، فكدت أموت من شدة الضحك وأنا أكتشف أنه تسديد فواتير لنادي الجولف الذي ينتمي إليه السيد صايطو.

بعدها بلحظة، تملكتني، بالعكس، رغبة في البكاء وأنا أفكر في الأشجار المسكينة البريئة التي يتلفها رئيسي من أجل معاقبتي. تمثلت لي غاباتُ يابانِ طفولتي، أشجار القيقب والكريبتوميريا والجنكة وهي تقطعُ، لا لشيء سوى معاقبة كائن عديم الأهمية مثل حالي. وتذكرت أن لقب فوبوكي يعني «غابة».

وصادف أن حضر السيّد تينشي، الذي كان يدير قسم منتجات الألبان. كان في مرتبة تعادل مرتبة السيد صايطو مدير قسم الحسابات العامة. تطلعت إليه في استغراب: لم لا يكلف مسؤول في مثل أهميته أحدَ معاونيه لتصوير الوثائق؟

أجاب عل سؤالي الصامت:

- الساعة الآن الثامنة مساء. في مكتبي، أنا الوحيد الذي لا يزال يعمل. قولي لي، لم لا تستعملين اللاقمة؟

شرحت له في بسمة متواضعة أن تلك هي الأوامر الصارمة للسيد صايطو.

- فهمت، قال بصوت مليء بالمعاني المضمرة.

بدا لي أنه يفكر قبل أن يسألني:

- أنت بلجيكية، أليس كذلك؟

- بلى.

- صدفة سعيدة. لي مشروع مهم جدّا مع بلدك. هل تقبلين بأن تعدّي لي دراسة؟

تطلعت إليه كما يتطلع المرء إلى المسيح المخلّص. شرح لي أن تعاونية بلجيكية قامت بتطوير صيغة جديدة لإزالة المواد الدسمة من الزبدة.

- أنا أؤمن بالزبدة خفيفة الدهنيات، قال. إنها المستقبل.

ابتدعت في الحال رأيا:

- كنت دوما أؤمن بذلك!

- زوريني غدا في مكتبي.

أنهيت التصوير وأنا في انتشاء بالغ. مستقبل زاهر ينفتح أمامي. وضعت حزمة الأوراق على طاولة السيد صايطو وانصرفت ظافرة.

ومن الغد، ما كدت أصل إلى شركة يوميموطو حتى قالت لي فوبوكي بصوت مذعور:

- السيّد صايطو يريد أن تعيدي تصوير الوثائق. هو يرى أنها مائلة عن المركز.

انفجرتُ ضاحكةً وشرحتُ لزميلتي اللّعبة التافهة التي يمارسُها معي عرفُنا.

- أنا واثقة من أنه لم يلق على نسخي ولو نظرة. لقد أنجزتها واحدة واحدة، مضبوطة بالمليمتر. لا أدري كم ساعة استغرق مني هذا العمل - كل ذلك من أجل تسديد فاتورة نادي الجولف الذي ينتمي إليه!

تعاطفت معي فوبوكي في لطف يشوبه غيظ:

- إنه يعذّبك!

واسيتها:

- لا تقلقي. إنه يسلّيني.

وعدت إلى الناسخة التي بدأت أعرفها جيدا وأودعت لاقمتها عملي: كنت على يقين من أن السيد صايطو سيصدر حكمه دون أن يلقي عليه نظرة. فكرت في فوبوكي فابتسمت ابتسام تأثر: «هي في غاية اللطف! لحسن حظّي أنها موجودة!»

في الواقع، جاءت لعبة السيد صايطو الجديدة في الوقت المناسب: بالأمس، كنت قد أمضيت أكثر من سبع ساعات لتصوير الأوراق الألف ورقة ورقة، وهو ما يمنحني عذرا جيدا للساعات التي سوف أقضيها اليوم في مكتب السيد تينشي. أنهت اللاقمة مهمّتي في عشر دقائق تقريبا. حملت الحزمة وهرعت إلى قسم منتجات الألبان.

عهد إلي السيد تينشي بعنوان التعاونية البلجيكية ورقم هاتفها:

- سأكون بحاجة إلى تقرير شامل، بكل ما أمكن من دقة، حول الزّبدة الجديدة المخفّفة. يمكنك أن تجلسي في مكتب السيد صايطاما، فهو في رحلة أعمال.

تينشي معناه «ملاك». قدّرت أن ذلك ينطبق تماما على السيد تينشي، فهو لم يكتف بمنحي فرصة فحسب، بل زاد على ذلك فلم يوجّه لي أية تعليمات. ترك لي حرية مطلقة، وهذا نادر جدا في اليابان. ثم إنه اتخذ هذه المبادرة دون استشارة أحد، وتلك مجازفة كبرى.

كنت أعي ذلك، وكان أن أحسست نحوه بإخلاص لا حدود له - ذلك الإخلاص الواجب على كلّ ياباني تجاه رئيسه، وهو ما لم أستطع تمثّله في علاقتي بالسيد صايطو والسيد أوموشي. صار السيد تينشي فجأة قائدي، ضابط سريّتي العسكريّة. كنت على استعداد أن أقاتل من أجله حتى النهاية، مثل صاموراي.

اندفعت في معركة الزبدة المخفّفة. ولما كان فارق الوقت لا يسمح

لي بمباشرة الاتصال هاتفيا ببلجيكا، بدأت بإجراء بحث ميدانيّ في مراكز الاستهلاك اليابانية والوزارات التي تعنى بالصّحة لأعرف كيف تتطور عادات التغذية لدى المواطنين في ما يتعلق بالزبدة وأثر تلك التحولات في معدل نسبة الكولسترول على الصعيد الوطني. تبيّن أن استهلاك الياباني للزبدة في ارتفاع وأنّ السمنة وأمراض القلب لا تنفكّ تكتسح بلاد الشمس المشرقة.

عندما يكون الوقت مناسبا، أتصل بالتعاونية البلجيكية الصغرى، فتجيئني عبر خط الهاتف تلك اللهجة المحلية الخشنة فتثير فيّ نوازع شوق عميقة لا مثيل لها. أظهر ابن بلدي، وقد دغدغت مكالمة اليابان شعوره، كفاءة عالية. ولم تمض عشر دقائق حتى وصلتني منه على الفاكس عشرون صفحة تستعرض، بالفرنسيّة، الطريقة الجديدة لتخفيف الزّبدة من الدّسم التي تملك التعاونية حقوقها.

حررتُ تقرير القرن، تقريرا يبدأُ بدراسة السّوق: استهلاك اليابانيين للزبدة، تطوره منذ 1950، وتطور الاضطرابات الصحية المرتبطة بالاستهلاك المفرط لدهون الحمض الزّبديّ في موازاة ذلك. ثم قمتُ بوصف الطرق القديمة لتخفيف الزّبدة من الدسم، والطريقة البلجيكية المستحدثة ومزاياها الكبيرة... إلخ. وبما أنّي كنت مطالبة بتحرير عملي باللّغة الإنجليزية، فقد حملتُه معي إلى البيت، لأنّني كنتُ بحاجة إلى قاموسي لشرح المصطلحات العلميّة. ولم أذقْ ليلتها طعما للنوم.

ومن الغد، وصلت إلى يوميموطو قبل الموعد بساعتين لأرقن التقرير وأسلّمه إلى السيد تينشي، فلا أتأخّر عن موعدي في مكتب السيد صايطو.

وما كدت أصل حتى ناداني:

- تفقّدت النّسخ التي تركتها لي البارحة على طاولتي. أنت في تحسّن، ولكنّك لم تبلغي بعد درجة الكمال. أعيدي.

ورمى بحزمة الأوراق في سلّة المهمَلات.

طأطأتُ رأسي ونفّذت أمره، وأنا لا أمنع ضحكة غلبتني.

لحِق بي السيد تينشي حذو الناسخة، وهنّأني بما يسمح له أدبه وحياؤه من حرارة:

- تقريرك رائع، وقد أنجزته في وقت قياسيّ. هل تودين أن أشير إلى ذلك خلال اجتماعنا؟

كان رجلا ذا كرم نادر، على استعداد أن يضع نفسه في موضع من يرتكب خطأ مهنيا لو طلبت منه ذلك.

- إلا هذا يا سيد تينشي. هذا يسيء إليك مثلما يسيء إليّ.

- أصبت. ولكن من ناحية أخرى يمكن أن ألمّح للسيدين صايطو وأوموشي خلال اجتماعاتنا القادمة أني بحاجة إليك. فهل تعتقدين أن في ذلك إزعاجا للسيد صايطو؟

- بالعكس. انظر إلى كميّة النسخ التي يكلفني بإعدادها، نسخ لا طائل من ورائها غير إبعادي أطول وقت ممكن عن مكتبه. واضح أنه يريد التخلص مني. سيكون سعيدا أن تعطيه الفرصة، لأنّه لم يعد يطيق وجودي.

- لن يتكدّر خاطرك إذن لو نسبت التقرير إليّ؟

كنت مأخوذة بتصرّفه، فليس ثمّة ما يحمله على إبداء مثل ذلك الاعتبار تجاه موظفة بسيطة في مقامي.

- هذا شرف كبير لي يا سيد تينشي أن تودّ نسبته إليك.

افترقنا وفي ذهن كلينا فائض من التقدير المتبادل. بدأت أتطلع إلى الغد بثقة. عمّا قريب، ينتهي التنكيد العبثي للسيد صايطو،

والناسخة، وحظر التكلم بلغتي الثانية.

جدّت مأساة بعد ذلك بأيام. دعيت إلى مكتب السيد أوموشي، فذهبت دون أدنى وجل، وأنا أجهل ما يريده مني.

عندما ولجت عرين نائب الرئيس، أبصرت السيد تينشي جالسا على كرسي. التفت إلي وابتسم. كانت ابتسامة مشحونة بعمق إنساني لم أخبَر مثله قطّ. كأنما كتب عليها: «سنواجه محنة كريهة ولكننا سنعيشها معا.»

كنت أظن أني أعرف ما التقريع، ولكن ما تلقيّته يومها كشف لي عن مدى جهلي. انهال عليّ وعلى السيد تينشي صراخ لا يتصوره العقل. وما زلت حتى الآن أتساءل أيهما الأشنع: الشكل أم المضمون.

المضمون كان مهينا بشكل لا يصدّق. وُصمتُ أنا ورفيقي المنكود بكل النعوت: خائنان، تافهان، ثعبانان، مخادعان و-أقذع الشتائم- أننا فردانيّان.

أما الشكل فقد ورد في صيغة شرح لأوجه عديدة من التّاريخ الياباني: ولكي يكفّ ذلك الصراخ الفظيع، كنت قادرة على الأدهى - أن أجتاح منشوريا، أضطهد آلاف الصينيين، أنتحر باسم الإمبراطور، ألقي طائرتي على بارجة حربية أمريكية، وحتى أن أعمل لفائدة شركتين اثنتين من يوميموطو.

ولكنَّ ما لا يحتمل بحال هو أن أرى صاحب الفضل عليّ يهان بسببي. كان السيد تينشي رجلا ذكيا حيّ الضمير، جازف مجازفة خطيرة من أجلي عن وعي وتصميم، دون أن يكون مدفوعا بمصلحة خاصة، بل بإيثاره غيره. وها أنه يمرّغ في الوحل لقاء طيبته.

حاولت أن أتّعظ به. كان منكّس الرأس، محنيّ الكتفين بشكل متواصل. وفي وجهه ما يشي بالخضوع والعار. جعلت أقلّده. ولكن

جاءت برهة من الوقت قال له السمين خلالها:

- لم يكن لك من هدف قطّ سوى تخريب الشركة!

مرت الأشياء بذهني كالبرق: ينبغي ألا يؤثر هذا الحادث على ترقية ملاكي الذي يحرسني، وسرعان ما ألقيت بنفسي في خضم الموج الهادر لصرخات نائب الرئيس:

- السيد تينشي لم يَرُم تخريب الشركة. أنا التي توسلتُ إليه كي يعهد لها بهذا الملف. أنا المسؤولة الوحيدة.

لم أجد من الوقت سوى ما اتسع لرؤية رفيق محنتي يلتفت إلي، وفي عينيه قرأت: «اسكتي، أرجوك!» - ولكن بعد فوات الأوان.

ظل السيد أوموشي لحظة فاغر الفم قبل أن يدنو مني ويصرخ في وجهي:

- تتجرئين على الدفاع عن نفسك!

- بالعكس، أنا أثقل عاتقي، وأحمّل نفسي كل الأخطاء. أنا وحدي ولا أحد سواي من يستحق العقاب.

- تجرئين على الدفاع عن هذا الثعبان؟

- السيد تينشي ليس بحاجة إلى من يدافع عنه. اتهاماتك ضدّه لا أساس لها من الصحة.

رأيت صاحب الفضل عليّ يغمض عينيه فأدركت أنني نطقت بما لا يغتفر.

- تتجرئين على الزعم بأن أقوالي خاطئة؟ أنت فظّة فظاظة تفوق الخيال!

- لا أجرؤ أبدا أن أدّعي شيئا من هذا القبيل. وإنما عنيت أن السيد تينشي نقل إليك معلومات خاطئة كي يبرّئ ساحتي.

أخذ رفيق محنتي الكلمة، وقد بدا قانعا بأننا بلغنا حدّا لم يعد لنا معه ما نخشى، وفي صوته رنين مذلّة بحجم الكون:

- أتوسّل إليك ألاّ تغضب منها، فهي لا تعني ما تقول. إنها غريبة وصغيرة، وليس لها أيّ تجربة حياتية. لقد ارتكبت خطأ لا يغتفر، وخجلي من ذلك عظيم.

- أجل، ليس لك أيّ عذر، صرخ السمين.

- مهما عظمت أخطائي، فإني أود أن أؤكّد على جودة تقرير أميلي- صَنْ وسرعتها الفائقة في إعداده.

- ليس هذا موضوعنا! كان على السيد صايطاما إنجاز هذا العمل!

- كان في رحلة أعمال.

- كان ينبغي انتظار عودته.

- هذه الزبدة المخففة لا شكّ أنّها مطمع كثير غيرنا، وقد يسبقوننا إليها لو بقينا ننتظر عودة السيد صايطاما وتحريره هذا التقرير.

- هل أفهم من هذا أنك تضع قيمة عمل السيد صايطاما موضع شكّ؟

- كلا! ولكن السيد صايطاما لا يحذق الفرنسية ولا يعرف بلجيكا، ولا شك أنه كان سيواجه عقبات أكبر بكثير ممّا واجهته أميلي- صَنْ.

- ولا كلمة! هذا التعلّل المقيت جدير برجل غربيّ.

وجدت أنه من الغلوّ والكبْر أن يقال ذلك بلا حياء تحت أنفي.

- لتعذر لي دناءتي الغربية. لقد ارتكبنا خطأ، ما في ذلك شك، ولكن ثمة فائدة يمكن أن نجنيها من سوأتنا تلك...

دنا مني السيد أوموشي بعيون مرعبة قطعت عليّ جملتي...

- أنت، أحذّرك: هذا أول تقرير وآخره. لقد وضعت نفسك في موقف سيئ للغاية. اخرجي! لا أريد أن أراك مرة ثانية!

لم أنتظر صيحته الثانية. في الرواق، ظل يتناهى إلى سمعي صراخ جبل اللحم ذاك وصمت نادم خانع لضحيته. ثم انفتح الباب ولحق بي السيد تينشي. قصدنا المطبخ معا، منسحقين بالشتائم التي تلقّيناها.

- اعذريني عن جرّك إلى هذه المسألة، قال لي بعد صمت.

- رجاء سيد تينشي، لا تعتذر! سأظل مدينة لك مدى الحياة. أنت الوحيد الذي منحتني فرصة. كان ذلك كرمًا منك وشجاعة. كنتُ أعرف ذلك من البداية، وصرتُ أعرفه أكثر منذ أن أبصرتُ ما حاق بك. لقد أجللتهم فوق ما يستحقون. ما كان عليك أن تقولَ لهم إن التّقرير من تحريري.

نظر إليّ في ذهول:

- لستُ أنا من قال. تذكري حديثنا: كنتُ أنوي أنْ أرفع ذلك إلى أعلى مستوى، إلى السيد هَنيدا، بشكل خاف، لأنها فرصتي الوحيدة كي أحقّق شيئا ما. أمّا وقد نُقل الموضوع إلى السيّد أوموشي، فلمْ يكن أمامنا غير الوقوع في الكارثة.

- يعني أن السيد صايطو هو الذي نقله إلى نائب الرئيس؟ يا للوغد، كم هو غبيّ. كان يمكن أن يتخلص مني فيحقق بذلك سعادتي - ولكن لا، كان ينبغي أن...

- لا تتحدّثي عن السيد صايطو بكثير من السوء. هو أحسن مما تتخيلين. ليس هو الذي بلغ عنّا. رأيت البطاقة على مكتب السيد أوموشي، ورأيت من كتبها.

- السيد صايطاما؟

- لا. هلْ من الضروري حقا أنْ أقول لك من هو؟

- ينبغي.

تنهّد:

- البطاقة تحمل توقيع الآنسة موري.

أحسست بضربة هراوة على رأسي:

- فوبوكي؟ مستحيل.

توقّف رفيق محنتي عن الكلام.

- لا أصدّق! أضفت. لا ريب أن ذلك الجبان صايطو هو الذي أمرها بكتابة البطاقة - هو لا يملك حتى الجرأة على الوشاية، بل ينتدب لها من يقوم بها!

- أنت مخطئة في حقّ السيد صايطو: هو خجول ومعقّد وبليد بعض الشيء، ولكنه ليس شريرا بالمرة. وما كان يقبل أن يُسلِمنا إلى غضب نائب الرئيس.

- لا أتصور فوبوكي قادرة على شيء كهذا.

اكتفى السيد تينشي بالتنهد من جديد.

- ما الذي يحمل فوبوكي على القيام بشيء من هذا القبيل؟ أردفت. هل تضمر لك الكراهية؟

- كلا. ما فعلته ليس موجها ضدي. في المحصلة النهائية، هذه المسألة تسيء إليك أكثر مما تسيء إليّ. أنا لم أخسر شيئا. أما أنت فقد خسرت حظوظك في الترقي لأمد طويل، طويل جدا.

- لا أفهم! لطالما عبرت لي عن صداقتها.

- أجل. طالما أن مهامك تنحصر في تقديم الروزنامات ونسخ فاتورة نادي الجولف.

- ولكن واضح أني من المستبعد أن آخذ مكانها!

- بالضبط. وهو ما لم تخشه قطّ.

- لماذا إذن وشت بي؟ وفيمَ حرجُها إن أنا عملت معك؟
- الآنسة موري تعذّبت كثيرا لنيل المركز الذي تشغله اليوم. لا شكّ أنها رأت من غير المقبول أن تنالي هذه الترقية بعد عشرة أسابيع فقط على وجودك في شركة يوميموطو.
- لا أستطيع أن أصدق ذلك. سيكون تصرفا بائسا جدا من قبلها.
- كل ما يمكنني قوله إنها حقّا عانت خلال أعوامها الأولى هنا معاناة شديدة.
- وبناء عليه، هي تريدني أن ألقى المصير نفسه! إنه أمر مثير للرثاء. ينبغي أن أتحدّث إليها.
- هل تعتقدين أنه أمر ضروري؟
- بطبيعة الحال. كيف تريد أن تنتظم الأمور، إذا نحن لم نثرها في حديثنا؟
- منذ قليل، تحدّثت مع السيد أوموشي الذي أشبعنا شتائم. هل تشعرين أن الأمور انتظمت بعدها؟
- الثابت هو أننا إذا لم نتكلم، فلا أمل في حل المشكل.
- ما يبدو لي أكثر ثباتا هو أننا إذا تكلمنا، ففي ذلك مجازفة جسيمة بأن نزيد المشكل حدّة.
- اطمئن، لن أزجّ بك في هذه المشاكل. ولكن يجب أن أتحدث مع فوبوكي وإلا فسوف أصاب بآلام حادّة في الأسنان.

تلقت الآنسة موري دعوتي بنوع من اللطف المستغرب. تبعتني. كانت قاعة الاجتماعات خالية فجلسنا.

بدأت بصوت لطيف رزين:

- كنت أظن أننا صديقتان. لم أفهم.

- لم تفهمي ماذا؟
- أتنكرين أنك وشيت بي؟
- ليس لي ما أنكر. لقد طبقت القانون الإداري.
- وهل القانون أهم لديك من الصداقة؟
- الصداقة كلمة كبيرة. لنقل «علاقات جيدة بين زملاء».

كانت تلفظ تلك الجمل المريعة في هدوء بريء بشوش.

- فهمت. هل تعتقدين أن علاقتنا ستستمرّ على طيبتها بعد تصرفك؟
- إذا اعتذرت، فلن يكون في صدري حقد عليك.
- كم أنت مُضحكة يا فوبوكي.
- عجيب! تتصرفين وكأنك أنت المهانة، والحال أنك ارتكبت خطأ جسيما.

أخطأت إذ رددت ردّا بالغ التأثير:

- غريب. كنت أظن أن اليابانيين يختلفون عن الصينيين.

نظرت إلي دون أن تفهم فواصلت:

- أجل. الوشاية لم تنتظر ظهور الشيوعية لتكون قيمة صينية. حتى اليوم، لا يزال صينيو سنغافورا مثلا يشجعون أطفالهم على الوشاية برفاقهم الصغار. كنت أظن أن اليابانيين يملكون معنى الشرف.

لا شك أني أغظتها وهو ما يُعَد خطأ استراتيجيا.

ابتسمت:

- هل تعتقدين أنك في موقف يسمح لك بإعطائي دروسا في الأخلاق؟

- حسب رأيك يا فوبوكي، لماذا طلبت أن أتحدث إليك؟
- عن غير وعي.
- ألا تتصورين أنّه عن رغبة في المصالحة؟
- ليكن. اعتذري، فنتصالح.
تنهّدتُ:
- أنت ذكية ونبيهة. لماذا تتظاهرين بعدم الفهم؟
- لا تفترّي، فمن السهل جدا سبر شخصيتك.
- هذا أحسن، فبذلك يمكنك فهم سخطي.
- أفهمه وأستهجنه. أنا التيْ لها ما يدفعها إلى السخط على تصرفك. لقد سعيتِ للحصول على ترقية لا حق لك فيها.
- لنفرض أن لا حق لي فيها. عمليا، ما الذي يزعجك في ذلك؟ فرصتي لا تسيء إليك في شيء.
- عمري الآن تسع وعشرون سنة، وعمرك اثنتان وعشرون. أشغل هذا المنصب منذ العام الماضي. وقد كافحت سنين كي أحصل عليه. وأنت، تتصورين أنك يمكن أن تبلغي رتبة مماثلة بعد بضعة أسابيع؟
- هذا إذن ما يزعجك! أنت ترغبين في أن أتعذّب، ولا تتحملين حظوة الآخرين. إنه سلوك صبياني!
ندت عنها ضحكة مقتضبة حانقة:
- ومفاقمة وضعيتك كما تفعلين، هل هي علامة على نضجك؟ أنا رئيستك المباشرة، هل تظنين أنّ لك الحق في مخاطبتي بهذه الصفاقة؟
- أنت رئيستي، أي نعم. ولا أملك أي حق، أعرف ذلك، ولكن أردت أن تعلمي كم أنا مستاءة. كنت أكن لك قدرا كبيرا من الاعتبار.

فرطت منها ضحكة أنيقة:

- أمّا أنا فلست مستاءة، لأني لا أكنّ لك أي اعتبار.

في بكرة اليوم الموالي، عندما وصلت إلى شركة يوميموطو، أعلمتني الآنسة موري بتعييني في مهمة جديدة:

- لن تغيّري القسم. ستعملين هنا، في المحاسبة.

تملكتني رغبة في الضحك:

- محاسبة، أنا؟ ولِمَ لا بهلوانة؟

- سأبالغ لو قلت إنَك محاسبة، فأنا لا أتصوّرك قادرة على هذه الوظيفة، قالت وهي تبتسم في إشفاق.

أرتني درجا كبيرا رُصّفت فيه فواتير الأسابيع الأخيرة، ثم أشارت إلى خزانة رُتّبت بجوفها ملفات ضخمة يحمل كل منها شعارا من شعارات أقسام يوميموطو الأحد عشر.

- عملك سيكون أسهل ما يمكن، أي أنه في متناولك، قالت تشرح لي في نبرة تعليمية. في البداية ينبغي عليك ترتيب الفواتير بحسب تواريخها، وبعد ذلك ينبغي تحديد القسم الذي ترجع إليه كل واحدة منها. لنأخذ مثلا هذه الفاتورة: أحد عشر مليونا للإمَّنْتال الفنلندي - هه، يا للصدفة العجيبة! إنه قسم منتجات الألبان. تأخذين دفتر الفواتير DP وتنسخين في كل عمود التاريخ واسم الشركة والمبلغ. عندما تصير الفواتير مدوّنة ومرتّبة، تضعينها في هذا الدّرج.

ينبغي الإقرار بأن ذلك ليس بالأمر الصعب. أبديت دهشتي:

- ألا تتم معالجة هذه الملفات بطرق المعلوماتية؟

- بلى: في نهاية الشهر يتولّى السيد أوناجي إدخال كل الفواتير في الحاسوب. حسبه عندئذ أن ينسخ عملك. سوف يستغرق منه

أقلّ ما يمكن من وقت.

في الأيام الأولى، كنت أقف متردّدة في اختيار دفاتر الفواتير. أسأل فوبوكي فتجيبني في أدب ضجر.

- ريمنج ليميتد، ماذا تعني؟
- معادن لا تحتوي على الحديد. قسم MM.
- جونتزر GMBH، ما هي؟
- مواد كيمياوية، قسم CP.

وسرعان ما حفظت عن ظهر قلب كل الشركات والأقسام التابعة لها. بدت لي المهمة أسهل فأسهل، حتى صارت تبعث في نفسي الضجر. ولم يكن ذلك في حدّ ذاته ليزعجني، لأنه كان يسمح لي بأن أشغل ذهني بشكل آخر. وهكذا، وأنا أدوّن الفواتير، كنت غالبا ما أرفع رأسي لأحلم متمليّة وجها فاتنا، وجه المرأة التي وشَت بي.

مرّت الأسابيع وأنا أزداد هدوءا. كنت أسمّي ذلك السكينة الفاتورية. لم يكن ثَمّة فارق بين حرفة الراهب النسّاخ في القرون الوسطى وحرفتي، فقد صرت أقضي أياما بطولها في استنساخ الحروف والأرقام. ولم يحدث أن لقي ذهني مثل هذا القدر الضئيل من التنبّه طوال حياته، إذ كان في سكينة لا مثيل لها. إنه زَنْ[1] دفاتر الحسابات. وإذا بي أفكّر أنه لو قُدّر لي أن أقضي أربعين سنة من حياتي في هذه البلادة اللذيذة، فلن يكون لديّ مانع.

لكم كنتُ غبية حين أقبلت على مزاولة دراسات عليا. لا شيء أقل نباهة من مخّي الذي ينبسط داخل الحماقة المتكرّرة. كنت منذورة للتنظيمات التأمليّة. أدركت الآن أن تسجيل الأرقام ونحن نتأمل

(1) زنْ: نسبة إلى مدرسة بوذية قدمت من الصين منذ القرن الثاني عشر، والمقصود هنا التأمل في سكينة تامة أقرب إلى الخشوع. (المترجم).

الجمال هو منتهى السعادة.

كانت فوبوكي محقّة كثيرا: لقد ضللت طريقي مع السيد تينشي، وحررت ذلك التقرير بمقابل الزبدة[1]، وهو ما ينطبق على واقع الحال. لم يكن ذهني من فصيلة الفاتحين، بل هو من نوع الأبقار التي ترعى في حقل الفواتير وهي ترقب مرور قطار الجِمال. كم هو حسن أن يحيا المرء بلا كبرياء ولا ذكاء. كنت في حال بيات شتوي.

في نهاية الشهر، أقبل السيد أوناجي ليعالج عملي بالحاسوب. تطلب منه نسخ أعمدتي ذات الحروف والأرقام يومين. كنت فخورة بشكل مضحك لكوني حلقة ناجعة في السلسلة.

الصدفة - أو لعلها الأقدار - شاءت أن يترك دفتر الفواتير CP لآخر مرحلة. وكما هو الشأن مع دفتر الحسابات العشرة الأخرى، بدأ ينقر راقنته دون كلام. ثم سمعته يهتف في دهش:

- لا أصدّق! لا أصدّق!

ورّق الصفحات في توتّر متزايد، ثم انفجر في ضحك عصبيّ مجنون تحول شيئا فشيئا إلى صيحات صغيرة متقطّعة. تطلع إليه أعضاء المكتب الأربعون مندهشين.

مازجني ألم.

نهضت فوبوكي وهرعت إليه. أراها عدّة صفحات من دفتر الفواتير وهو يشرق بالضحك. استدارت نحوي. لم يبد عليها أنها تشاطر زميلها ضحكه الساخر.

نادتني وقد امتقع وجهها.

- ما هذا؟ سألتني في نبرة جافة وهي تشير إلى الأسطر المتهمة.

قرأت:

(1) تعبير فرنسي دارج معناه: سُدى، بلا جدوى. (المترجم).

- أوه... إنها فاتورة الـ GMBH المؤرخة في...

- الـ GMBH؟ الـ GMBH! قالت في انفعال.

انفجر الأعضاء الأربعون بقسم المحاسبة ضحكا، وأنا لا أفهم شيئا.

- هل لك أن تشرحي لي ما هي الـ GMBH؟ سألتني رئيستي وهي تشبّك ذراعيها.

- إنها شركة كيمياوية ألمانية عادة ما نتعامل معها.

ازدادت صيحات الضحك ارتفاعا.

- ألم تلاحظي أن GMBH مسبوقة دائما باسم أو أكثر؟ تابعت فوبوكي.

- بلى. إنه في ما أظن اسم يدل على مختلف فروعها. وقد رأيت ألا أثقل دفتر الفواتير بهذه الجزئيات.

حتى السيد صايطو، برغم حيائه، أطلق سجيته وراح في ضحك متزايد. أما فوبوكي فلم تضحك بعد. كان وجهها يعكس أشدّ علامات الغضب المكبوتة رعبا. لو استطاعت صفعي لفعلت. وبصوت قاطع كحدّ السيف قالت لي:

- غبية! تعلّمي أن GMBH هي المقابل الألماني لـ Limited الإنجليزية و S. A. الفرنسية[1]. الشركات التي خلطتها تحت تسمية GMBH لا علاقة لها بعضها ببعض. لكأنك اكتفيت بكتابة ليميتيد لتسمية كل الشركات الأمريكية والإنجليزية والأسترالية التي نتعامل معها! كم وقتا يلزمنا لتدراك أخطائك؟

---

(1) Gesellschaft mit beschränkter Haftung وتختصر في GmbH أو GesmbH أو Ges.m.b. وهي مستعملة في ألمانيا وسويسرا والنمسا وبعض بلدان أوروبا الوسطى، وتعني مقابلها الإنجليزي Company with limited liability أي شركة محدودة المسؤولية، تقابلهما في الفرنسية Société Anonyme أي شركة مغفَلة أوشركة خفية الاسم. (المترجم).

اخترت أكثر الإجابات حماقة:

- ما أغبى هؤلاء الألمان إذ اختاروا شعارا بهذا الطول للدلالة على U.S. A!

- هكذا إذن! لعله ذنب الألمان أيضا إن كنت غبية؟

- اهدئي يا فوبوكي! لم يكن بإمكاني أن أعرف ذلك...

- لم يكن بإمكانك؟ بلدك له حدود مع ألمانيا، وأنت لا تستطيعين أن تعرفي ما نعرفه نحن اليابانيين الذين يعيشون في الطرف الآخر من الكرة الأرضية!

كنت على وشك التلفظ بشيء رهيب، وحمدت الرّبّ أني كتمته في صدري: «قد تكون لبلجيكا حدود مع ألمانيا ولكن اليابان خلال الحرب الأخيرة كان لها أكثر من حدّ مشترك مع ألمانيا!»

اكتفيت بأن حنيت رأسي مذعنة.

- لا تبقي مسمّرة هكذا! اذهبي للبحث عن الفواتير التي صنّفتها ألمعيّتك ضمن الكيمياء منذ شهر!

عندما فتحت الدرج، كدت أضحك وأنا ألاحظ أن حافظة المواد الكيمياوية بلغت أحجاما هائلة نتيجة ترتيباتي.

أقبلت على العمل رفقة السيد أوناجي والآنسة موري. استغرقت منا إعادة ترتيب دفاتر الفواتير الأحد عشر ثلاثة أيام. لم أكن إذن في وضع قبول حينما جدّ حادث أكثر خطورة.

أولى علاماته ارتجاف في الكتفين الثقيلتين للشهم أوناجي، وهذا معناه أنه سيشرع في نوبة ضحك. بلغ الارتجاف صدره ثم حنجرته ثم انبجس ضحك اقشعرّ له بدني.

سألت فوبوكي وهي لا تزال ممتقعة السحنة:

- ماذا فعلت أيضا؟

أطلعها السيد أوناجي على الفاتورة من جهة وعلى دفتر الحسابات من جهة أخرى.

أخفت وجهها خلف يديها. انتابتني رغبة في الغثيان وأنا أتمثل ما ينتظرني.

أقبلا على الصفحات يقلّبانها وهما يشيران إلى عدة فواتير. وإذا بفوبوكي تمسكني من ذراعي وتريني دونما كلمة المبالغ التي نسختها بخطي الذي لا يشبهه خط.

- ما إن يفوق الرقم أربعة أصفار حتى تصبحي عاجزة عن نسخه نسخا صحيحا! أنت تزيدين وتنقصين صفرا على الأقل في كل عملية.

- هذا صحيح!

- هل أنت واعية؟ كم أسبوعا يلزمنا الآن لتعقب أخطائك وتصويبها؟

- ليس سهلا، كل هذه الأصفار التي تتتابع...

- اسكتي!

جذبتني من ذراعي وسحبتني خارج المكتب، دخلنا مكتبا خاليا ثم أغلقت الباب.

- ألا تشعرين بالخجل؟

- أنا آسفة، قلت في انكسار.

- كلا. لست كذلك! هل تحسبينني مغفّلة؟ لقد ارتكبت تلك الأخطاء الشنيعة لكي تنتقمي مني!

- أبدا! أقسم لك!

- أعرف جيدا أنك تحقدين عليّ لأني بلّغت عنك نائب الرّئيس في قضيّة منتجات الألبان، فقررت أن تجعليني مثارا للسخرية أمام

الملأ.

- إنما جعلت نفسي لا أنت مثارا للسخرية.

- أنا رئيستك المباشرة والجميع يعلم أني أنا التي عهدت إليك بهذا العمل. أنا المسؤولة إذن عن أفعالك، تعرفين ذلك جيدا، وتتصرفين بخسّة كسائر الغربيين: تضعون غروركم فوق مصالح الشركة. ولكي تنتقمي من تصرفي معك، لم تترددي في تخريب حسابات يوميموطو، وأنت تعلمين تماما أني سوف أحاسب عن أخطائك.

- لم أكن أعلم شيئا ولم أرتكب هذه الأخطاء عن عمد!

- لا تستغفليني! أنا لا أجهل أنك محدودة الذكاء، ولكن لا أحد يمكن أن يكون على هذا القدر من الغباء كي يرتكب أخطاء مثل هذه.

- بلى: أنا.

- كفى! أعرف أنك تكذبين.

- فوبوكي، أقسم لك بشرفي أني ما تعمّدت الخطأ.

- الشرف! ماذا تعرفين أنت عن الشرف؟

وأرسلت ضحكة ازدراء.

- ليكن في علمك أن الشرف يوجد أيضا في الغرب.

- آه! هل من الشّرف أن تؤكدي بلا خجل أنك آخر الأغبياء؟

- لا أعتقد أني غبية بهذه الدرجة.

- ينبغي أن نعرف ؛ إمّا أنك خائنة أو متخلفة ذهنيا: لا مجالَ لاحتمال ثالث.

- بلى، ثمة ثالث: أنا. يوجد أناس أسوياء ثم يتضح أنهم عاجزون عن نسخ أعمدة أرقام.

- في اليابان، لا وجود لهذا النوع من الأشخاص.
- من الذي تخامره فكرة إنكار التفوق الياباني؟ قلت وقد اتخذ وجهي علامات الندم.
- إن كنت تنتمين إلى صنف المتخلفين ذهنيا، كان عليك إعلامي بدل أن تتركيني أكلفك بهذه المهمة.
- لم أكن أعرف أني من هذا الصنف. أنا ما تولّيت طوال حياتي نسخ أعمدة من الأرقام.
- ومع ذلك، فإن هذه العاهة غريبة، فالمرء لا يحتاج إلى ذكاء كي ينسخ بعض المبالغ.
- أظن أن هذا بالتحديد هو مشكل أناس من صنفي. إذا لم يُستَثَر منا ذكاؤنا، فإن عقلنا يدخل في سبات. ومن ثَمّ كانت أخطائي.

أخيرا تغير وجه فوبوكي وغادر مسحته القتالية ليكتسي مسحة تعجب مازح:

- ذكاؤك بحاجة إلى أن يُستثار؟ يا له من أمر شاذّ!
- بل هو أمر عادي جدّا.
- حسنا. سأفكر في عمل يستدعي ذكاءك، كررت رئيستي وقد بدت أنها تستعذب هذه الطريقة في الكلام.
- في الأثناء، هل يمكنني أن أساعد السيد أوناجي في تصويب أخطائي؟
- أبدا! لقد خلفت من الأضرار ما يكفي!

لا أدري كم وقتا لزم زميلي المسكين لتقويم دفاتر الفواتير التي شوهتُها، ولكن الآنسة موري لم يلزمها سوى يومين كي تجد لي مهمة بدت لها في متناولي.

كانت حافظة ملفات ضخمة تنتظرني على مكتبي.

- ستراجعين فواتير مصاريف رحلات الأعمال، قالت لي.

- المحاسبة مرة أخرى؟ لقد سبق أن أخبرتك بقصوري.

- لا علاقة لهذا بذاك. هذا العمل سيستدعي ذكاءك، أكدت في ضحكة ماكرة.

وفتحتِ الحافظة.

- هذا مثلا الملف الذي جمعه السيد شيراناي بغية استرجاع مصاريفه بعد رحلة العمل التي قام بها إلى دوسّلدورف. ينبغي أن تعيدي حساباته بدقة وتعترضي عليها إذا لم تحصلي على النتيجة نفسها التي حصل عليها على آخر ينّ. لهذا الغرض، وبما أن أغلب الفواتير مدفوعة بالمارك، ينبغي عليك حساب المبالغ استنادا إلى سعر المارك في التواريخ المذكورة على وصولات الحساب. لا تنسي أن أسعار الصرف تتغير كل يوم.

وألمّ بي عندئذ كابوس من أفظع الكوابيس في حياتي. منذ اللحظة الأولى التي تسلمت فيها مهمتي الجديدة، زال مفهوم الزمن من وجودي ليترك مكانه لأبديّة العذاب. إذ لم يصادف إطلاقا أن حصلت على نتيجة إلاّ وكانت غير مساوية ولا حتّى مُقارِبة لتلك التي يفترض أن أراجعها. مثلا، إذا كان المسؤول قد حسب أن يوميموطو مدينة له بـ 327 93 ينّا أحصل أنا على 211 15 أو 045 172 ينّا. وسرعان ما اتّضح أن الأخطاء كانت من جانبي.

في نهاية اليوم الأول، قلت لفوبوكي:

- لا أعتقد أني مؤهلة لهذه المهمة.

- مع أنه عمل يستدعي الذكاء، ردّت في قسوة.

- لم أوفّق، اعترفت في انكسار.

- سوف تتعوّدين.

ولم أتعوّد. برغم جهودي الحثيثة، اتضح أني كنت في نهاية المطاف عاجزة عن القيام بتلك العملية.

تلقفت رئيستي الحافظة لتثبت لي كم هي سهلة. تناولت ملفا، وجعلت تنقر حاسبتها بسرعة فائقة دون أن تحتاج حتى إلى النظر إلى الملامس. وفي أقل من أربع دقائق، ختمت بقولها:

- حصلت على المبلغ نفسه الذي حصل عليه السيد صايطاما.

ووضعت ختمها على التقرير.

استأنفت معاناتي مقهورة بهذا الظلم الجديد الذي جنته عليّ الطبيعة. لم تكن اثنتا عشرة ساعة تكفي لأتمّ عملا تتلاعب به فوبوكي في ثلاث دقائق وخمسين ثانية.

لم أدر كم يوما مضى حينما لاحظت لي أني لم أسوّ بعد أي ملفّ.

- ولا واحدا قالت في اندهاش.

- أي نعم، قلت وأنا أنتظر عقوبتي.

لسوء حظي، اكتفت بالإشارة إلى الروزنامة.

- لا تنسي أنه ينبغي إتمام الحافظة قبل نهاية الشهر.

كنت أفضل لو أطلقت عقيرتها بالصراخ.

مرت أيامٌ أخرى. كنتُ في جحيم: أتلقّى على الوجه سيولا من الأرقام بفواصل وكسور عشرية بغير انقطاع. كانت تتحوّل في ذهني إلى صُهارة معتمة فلا أستطيع تبين هذه من تلك. طبيب عيون أكد لي ألا دخل لنظري في ذلك.

الأرقامُ التي طالما أعجبت بجمالها الفيثاغوري الهادئ[1] أصبحت عدوّتي. حاسبة الجيب هي أيضا صارت تريد بي شرّا. ومن بين العوائق التي تعوق تكامل وظائفي الحركية والنفسية هذا العائق:

(1) إشارة إلى الصمت المديد الذي كان فيثاغور يفرضه على أتباعه. (المترجم).

عندما أضطر إلى النقر على ملامس الراقنة لأكثر من خمس دقائق، تصبح يدي دبقة كأني غطّستها في عصيدة بطاطا ثخينة لصوق. فقد تجمّدت أربع أصابع من أصابع يدي بشكل نهائي، ولم تبق سوى السبابة طافية على السطح لتبلغ الملامس في بطء وتلبّكٍ لا يفهمهما من لا يتبين عصيدة البطاطا الخفية.

إضافة إلى ذلك، وبما أن هذه الظاهرة كانت مشفوعة بغباء قلّ مثيله إزاء الأرقام، كان في المشهد الذي أتحرّك في إطاره وأنا أمام حاسبة الجيب ما يبعث على الحيرة. كنت أبدأ بالنظر إلى أي رقم جديد في اندهاش روبنسون[1] عند لقائه أحد سكان تلك الأرض المجهولة ؛ ثم تحاول يدي المغفّلة استحضاره على الراقنة. فكان رأسي لا يكف عن التنقل جيئة وذهابا بين الورق والشاشة لأتأكد من أني لم أضيّع في الطريق فاصلة أو صفرا – والغريب أن ذلك لم يحل دون ارتكابي أخطاء فادحة.

ذات يوم، وأنا أنقر على الآلة بشكل مضحك، رفعت عيني فإذا رئيستي ترقبني في انذهال.

– ما هي مشلكتك بالضبط؟ سألتني.

ولكي أطمئنها، بحت لها بتناذر عصيدة البطاطا التي تشلّ يدي، وفي اعتقادي أن تلك الحكاية ستجعلني ظريفة في نظرها.

النتيجة الوحيدة لذلك البوح كانت هذا الاستنتاج الذي قرأته في النظرة الرائعة لفوبوكي: «فهمت الآن. هي متخلّفة ذهنيًا بحقّ. كل شيء صار واضحا.»

كانت نهاية الشهر تقترب والحافظة لا تزال على سمكها.

– أنت واثقة من أنك لا تأتين ذلك عن عمد؟

(1) المقصود هنا روبنسون كروزي، بطل رواية بنفس الاسم للكاتب والمغامرالإنجليزي دانيال ديفو (1659-1731). (المترجم).

- كلّ الثقة.

- هل يوجد كثير من الـ... بشر مثلك في بلدك؟

كنت أول بلجيكية تلتقي بها. دفعتني دفقة كبرياء وطنية إلى الإجابة بالحقيقة:

- لا أحد في بلجيكا يشبهني.

- هذا يطمئنني.

انفجرتُ ضاحكة.

- هل في هذا ما يضحك؟

- ألم يحدّثوك يا فوبوكي بأنه من غير اللائق أن نعامل المعوقين ذهنيا بعنف وقسوة؟

- بلى، ولكنهم لم يخبروني بأن واحدا منهم سيكون تحت إمرتي.

ضحكتُ أكثر فأكثر.

- لم أفهم بعد ما الذي يضحكك؟

- هذا يندرج ضمن مرضي الحركي النفسي.

- خير لك أن تركّزي على عملك.

يوم 28، أبلغتها بقراري عدم الرجوع إلى بيتي هذه الليلة.

- بعد إذنك، سوف أقضي الليالي هنا، في مكتبي.

- هل أن عقلك يكون أكثر فاعلية في الظلام؟

- أرجو ذلك. لعل هذا الإرغام الجديد سيجعله أخيرا ذا فاعلية.

حصلت على موافقتها دون صعوبة. ليس من النادر أن يبقى بعض الموظفين في مكاتبهم كامل الليل حينما تكون ثمة آجال محددة لا بدّ من احترامها.

- هل تعتقدين أن ليلة واحدة تكفي؟

- قطعا لا. لا أتوقع العودة إلى بيتي قبل يوم 31.

وأريتها جرابا من تلك التي توضع على الظهر:

- جئت بما يلزمني.

شملني نوع من الانتشاء حين ألفيت نفسي وحيدة داخل شركة يوميموطو، انتشاء سرعان ما زال، إذ لاحظت أن عقلي لا يعمل بطريقة أفضل أثناء الليل. بدأت أعمل دون انقطاع: ولم يأت هذا الحرص بنتيجة.

في الرابعة صباحا، ذهبت إلى دورة المياه لتسوية مظهري بشكل سريع وتغيير ملابسي، ثم شربت شايا ثخينا وعدت إلى مكتبي.

قدم الموظفون في السابعة صباحا، وقدمت فوبوكي بعدهم بساعة. ألقت نظرة سريعة على خزانة الأدراج المعدّة لفواتير المصاريف المحقّقة، وإذ لاحظت أنها لا تزال خاوية، هزّت رأسها.

ثم عقبت هذه الليلة ليلة سُهاد أخرى، والوضع لا يزال على حاله. كانت الأشياء داخل جمجمتي لا تزال هي أيضا مشوشة، مع أني كنت أستبعد الخيبة. كنت أحس بتفاؤل غامض يجعلني جريئة. ووجدتني، دون أن أتوقف عن حساباتي، أخاطب رئيستي بخطابات أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها خارجة عن الموضوع:

- في اسمك ثلج، وفي الصيغة اليابانية لاسمي ثمة مطر. هذا في نظري وثيق الصلة، فبيني وبينك نفس الفارق بين الثلج والمطر، وهذا لا يمنع من أننا نتألف من معدن متماثل.

- هل ترين حقا مجالا للمقارنة بيني وبينك؟

كنت أضحك. في الحقيقة، كنت أضحكُ لأدنى سبب، نتيجة قلة النّوم. يعتريني أحيانا إرهاق وإحباط، ولكن سرعان ما يعاودني الضحك.

كان برميل فراشاتي الليلية لا يكف عن الامتلاء بأرقام تتسرب عبر عقلي المخروم. كنت سيزيف المحاسبة، وكما هي حال ذلك البطل الأسطوري، كنت أعيد العمليات العسيرة للمرة المائة والمرة الألف. بالمناسبة، ينبغي أن أعترف بهذه المعجزة: كنت أخطئ ألف مرة، وهو أمر كان يمكن أن يكون مروّعا، مثل موسيقى رتيبة تتكرر، لو لم تكن أخطائي تتنوع كل مرة ؛ إذ كنت في كل عملية حسابية أحصل على ألف نتيجة متباينة. كنت عبقرية فذة.

ليس من النادر أن أرفع رأسي بين عمليتي جمع لأتأمل تلك التي ألقت بي في الأشغال الشاقة. كان جمالها يدهشني. أسفي الوحيد أن التسريحة ذات النظافة المتصنّعة التي تثبّت شعرها نصف الطويل في انحناء، لا تشوبها شائبة، كان شكلها المتصلّب يعني: «أنا امرأة ذات مسؤولية»[1]. عندئذ أنخرط في تمرين ذهني ممتع: أفكّ تسريحة شعرها، فأطلق سراح ذلك الشعر الأسود اللامع، فيما تمنحه أصابعي اللامادية إهمالا رائق الفتنة. أحيانا، أهتاج فأجعل شعرها في فوضى من قضّت ليلة حب حامية. وكانت تلك الهيئة المتوحشة تضفي عليها فتنة ساحرة.

وصادف أن فاجأتني فوبوكي أمارس حرفتي تلك، حرفة حلاقة خيالية:

- لماذا تنظرين إلي هكذا؟
- كنت أفكر في أن كلمتي «شَعر» و«إله» في اللغة اليابانية تُنطقان بالطريقة نفسها.
- كلمة «ورق» أيضا، لا تنسي ذلك. هيا عودي إلى أوراقك.

كان الضباب في ذهني يستفحل من ساعة إلى أخرى. وتضاءل

(1) بالإنجليزية في النص .executive woman (المترجم).

تمييزي بين ما ينبغي وما لا ينبغي عليّ قوله بشكل تدريجي. وأنا أبحث عن سعر الكورونة السودية بتاريخ 1990/2/20، انفرط مني سؤال:

- عندما كنتِ طفلة، ماذا كنت تتمنّين أن تصبحي؟

- بطلة في الرماية بالقوس.

- هذا يناسبك تماما.

وبما أنها لم تبادلني السؤال بسؤال، واصلت:

- أنا، عندما كنت طفلة، كنت أريد أن أصبح الربّ، ربّ المسحيين بحرف راء كبيرة. عندما قاربت الخامسة من عمري، بدأت أفهم أن طموحي لا يمكن تحقيقه، فتواضعت قليلا وقررت أن أصبح المسيح. تمثل لي موتي على الصليب أمام البشرية جمعاء. في سن السابعة، أدركت أن ذلك لن يحدث لي أبدا، فقررت بتواضع أكبر أن أصبح شهيدة. وبقيت على هذا الاختيار أعواما طويلة. ولكن، مرة أخرى، لم تسر الأمور كما أشتهي.

- وبعد؟

- تعرفين: صرت محاسبة في شركة يوميموطو، ولا أحسب أني سأنحدر إلى ما هو أدنى.

- أتعتقدين؟ سألتني في ضحكة غامضة.

حلّت الليلة الفاصلة بين 30 و31. كانت فوبوكي آخر المنصرفين. تساءلتُ لماذا لم تفصلني عن العمل. أليس واضحا كل الوضوح أني لن أتوصل البتة إلى إنجاز ولو واحد في المائة مما عُهد إليّ؟

ألفيت نفسي وحيدة. كانت تلك ليلة سهدي الثالثة على التوالي في المكتب العملاق. كنت أنقر على حاسبة الجيب وأسجّل نتائج لا تَني تتعقد، حين حدث لي شيء خرافيّ، فقد انتقل ذهني إلى الناحية الأخرى.

فجأة، لم أعد راسية. نهضت. كنت حرة طليقة كما لم يحدث من قبل. مشيت حتى الفرجة البلورية. كانت المدينة تضيئها الأنوار على مسافة بعيدة، تحتي. كنت أسيطر على العالم. كنت الربّ. ألقيت بجسدي عبر النافذة لأتخلص منه.

أطفأت مصابيح النيون، فالأضواء البعيدة تكفي لأرى بوضوح. قصدت المطبخ وأخذت علبة كوكا شربتها في جرعة واحدة. ولما عدت إلى قسم المحاسبة، حللت رباط حذائي وألقيت به جانبا. قفزت على أحد المكاتب، ثم رحت أقفز من مكتب إلى آخر وأنا أطلق صيحات فرح.

كنت من الخفة ما جعل ثيابي تثقل عليّ. خلعتها قطعة قطعة ونشرتها حولي. حينما أصبحت عارية، قمت بوقفة على رأسي ويديّ - وأنا التي لم تكن قادرة على ذلك بالمرة. جعلت أتنقل إلى المكاتب المجاورة على يديّ. وبعد قلبة رياضية ناجحة، وثبت فوجدت نفسي في مكان رئيستي.

فوبوكي، أنا الرّبّ. أنا الرّبّ وإن لم تؤمني بي. أنت تأمرين، وتلك مسألة هيّنة، أما أنا فأحكم. العظمة لا تعنيني، أما الحكم فهو أجمل بكثير. أنت لا تتصورين مجدي. رائع هو المجد. إنه بمثابة نفير تعزفه الملائكة على شرفي. لم أشعر بمثل هذا المجد إلا هذه الليلة. والفضل لك. لو تدرين أنك تعملين لصالح مجدي!

بيلاطس البنطي أيضا لم يكن يعلم أنه يسعى لنصر المسيح. كان ثمة مسيح الزياتين، أما أنا فإني مسيح الحواسيب. في الظلام الذي يحيط بي تنتصب غابة من الحواسيب الوارفة.

أتأمل حاسوبك يا فوبوكي. إنه كبير رائع، تضفي عليه الظلمات هيئة صنم في جزيرة الفصح[1]. جاوز الليل نصفه، واليوم هو يوم

(1) أوجزيرة باك (Ile de Pâques) جزيرة معزولة في جنوب شرق المحيط الهادئ. (المترجم).

جمعة، يوم جمعتي المقدس، يوم الإلهة فينوس عند الفرنسيين، ويوم الذهب عند اليابانيين، ولا أدري أي ترابط منطقي يمكن أن أجده بين تلك الآلام اليهودية المسيحية والمباهج الحسية اللاتينية، وبين هذه العبادة اليابانية للمعدن الذي لا يَبلى.

منذ أن غادرت العالم الدنيوي لألج عالم التنظيمات السرية، فقد الزمن قوامه وتحول إلى حاسبة جيب أنقر عليها أرقاما مشحونة بالأخطاء. أظن أنه عيد الفصح. من قمة برجي البابلي، أمدّ البصر إلى حديقة أوينو فأرى الأشجار المكسوة بالثلوج: أشجار كرز مزهرة
- أجل، لا بدّ أنه عيد الفصح.

وبقدر ما كان عيد الميلاد يصيبني بالاكتئاب، كان عيد الفصح يبهجني. أمرٌ مروّع أن يصبح إله ما رضيعا، أما أن يتحول رجل مسكين إلى إله فتلك لعمري مسألة أخرى. أعانق حاسوب فوبوكي وأغمره بالقبل. أنا أيضا مصلوبة مسكينة. ما أحبُّ في عملية الصلب هو أنها تشير إلى النهاية. أخيرا، سأنتهي من الآلام. لقد طرّقوا جسدي بهذا الكمّ من الأعداد حتى لم يبق مكان فيه لأيّ كسر عشري. سيقطعون رأسي بحدّ السيف، ولن أحسّ بعدئذ بشيء.

عظيم أن يعرف المرء متى يموت. يمكن أن ينظّم أمره ويجعل من يومه الأخير عملا فنيا. في الصباح، يأتي جلاّديّ فأقول لهم: «أخطأتُ فلتُعدموني. حققوا لي رغبتي الأخيرة: أن تتولى فوبوكي قتلي. لتَفصل جمجمتي عن جسدي كما لو كان شجيرة فلفل. سيسيل دمي، فيكون فلفلا أسود. خذوا وكلوا فهو فلفلي الذي يراق من أجلكم ومن أجل عامة الناس. إنه فلفل المسيحية الخالدة. ولسوف تعطسون على ذكراي.»

وفجأة شملني البرد. ضممت الحاسوب طويلا بين ذراعيّ دون أن

أدفأ. ارتديت ملابسي. كانت أسناني لا تزال تقرقف، فاستلقيت على الأرضية وصببت محتوى الزبالة على جسدي، وغبت عن وعيي.

سمعت من يصرخ بي. فتحت عينيّ وأبصرت الفضلات، فأغمضتهما من جديد.

وهويت مرة أخرى في قاع سحيق.

تناهى إلى سمعي صوت فوبوكي الناعم:

- هي كما أعرفها. لقد غطّت جسدها بالفضلات حتى لا يجرؤ أحد على خضّها أو لمسها. تلك طريقتها، فهي بلا كرامة. حينما أقول لها إنها غبية تجيب لا بل أدهى، إنها معوقة ذهنيا. ما فتئت تحطّ من قدرها على الدوام، وفي ظنها أن ذلك يجعلها بمنأى عن المساءلة. كم هي مخطئة.

وددت أن أشرح لها أن ما قمت به كان لحماية جسدي من البرد، غير أني لم أجد قدرة على الكلام. كنت في الدفء تحت قاذروات يوميموطو، لا أزال غائبةً عن وعيي.

طفوتُ على السّطح. من خلال طبقة من الأوراق المدعوكة والعلَب الفارغة وأعقاب السّجائر المبللة بالكوكا، لمحت الساعة الجدارية تشير إلى العاشرة صباحا.

نهضت. لم يجرؤ أحد على النظر إليّ، باستثناء فوبوكي التي قالت لي ببرود:

- في المرة القادمة، عندما تقررين التنكر في هيئة متشردة، فلا تفعلي ذلك هنا داخل مؤسستنا. توجد محطات.مترو لهذا الغرض.

وأنا خَجْلى حدّ المرض، حملتُ جرابي وهرعت إلى دورة المياه حيثُ غيرت ملابسي وغسلتُ رأسي تحت صنبور الماء. ولما عدت، كانت

عاملة التنظيف قد طهّرت آثار جنوني.

- كنت أود القيام بذلك بنفسي، قلت محرجة.

- أجل، علّقت فوبوكي. هذا على الأقل تقدرين عليه.

- لا شكّ أنك تقصدين مراجعة المصاريف. أنت محقّة: إنها فوق طاقتي. أعلن رسميا أنني عدلت عن هذه المهمة.

- تأخر إعلانك كثيرا، لاحظت لي في تهكم.

«هكذا إذن، فكّرتُ، كانت تريد أن أصرّح به بنفسي. أمر طبيعي، فذلك أشدّ إهانة.»

- الأجل ينتهي هذا المساء، أردفتُ.

- ناوليني حافظة الملفات.

وفي عشرين دقيقة، أنهت كل شيء.

قضيت النهار مثل زومبي[1]. كنت كمن صحا بعد ثملة. كان مكتبي مغطى بحزم أوراق مشحونة بأخطاء في الحساب. رميتها ورقة ورقة.

عندما أتأمّل فوبوكي وهي تعمل على حاسوبها، أجد صعوبة في كتمان ضحكي. تتراءى لي نفسي البارحة عارية، جالسة على لوحة المفاتيح، أحضن الآلة بذراعيّ ورجليّ. والآن ها هي المرأة الشابة تضع أصابعها على المفاتيح. كانت تلك أول مرة أهتم فيها بالمعلوماتية.

لم تكف ساعات النوم القليلة تحت الفضلات لانتشالي من حالة العجينة المتحللة التي صار عليها دماغي من فرط الأرقام. كنت أتخبط، أبحث تحت الأنقاض عن جثث نقاط استدلالي الذهنية. ومع ذلك، كنت أتلذّذ استراحة كالمعجزة لم أحسب لها حسابا: لأوّل مرة منذ أسابيع لا تنتهي، لم أكن بصدد النقر على حاسبة جيب.

(1) أو زونبي بلهجة الكريول: وتعني في الفولكلور الفودو في جزر الكرايبي العائد من الموت لخدمة بعض السحرة. والمقصود هنا غائب عن الوجود فاقد للإرادة. (المترجم).

كنت أكتشف العالم من جديد بغير أرقام. وبما أن ثمة أمية القراءة والكتابة أي جهلا بالحروف الأبجدية، كان لا بدّ كذلك من إيجاد أمية الأرقام أي الجهل بالرياضيات للحديث عن المأساة التي تخص أناسا مثلي.

عدت من جديد إلى القرن. قد يبدو غريبا أن الأشياء، بعد ليلة جنوني تلك، استعادت دورتها الطبيعية، كأن لم يحدث أمر جلل. صحيح ألا أحدَ شاهدني أجوب المكاتب عاريةً، أمشي على يديّ، أو رآني أداعبُ حاسوبا لا حيلةَ له، ولكنهم وجدوني نائمة تحت محتوى زبالة. في بلدان أخرى، كنت أقابل بالطرد نتيجة هذا النوع من السلوك.

والعجيب أن في هذا شيئا من المنطق: فالأنظمة الأكثر شمولية تثيرُ، في الأمم الخاضعة لها، أفظع الحالات انحرافا - وتبدي، بسبب من ذلك تحديدا، تسامحا نسبيا تجاه أكثر السلوكيات البشرية غرابةً. لا يمكن أن نفهم بالضّبط من هو غريب الأطوار ما لم نلتق بغريب أطوار ياباني. هل نمت تحت القاذورات؟ لقد رأوا أغرب من ذلك، فاليابان هي بلد يعرف ماذا يعني أن «ينهار» الإنسان.

عدت لممارسة الأعمال الهامشية. قد يكون من الصعب عليّ أن أجد المتعة التي كنت أعدّ بها الشاي والقهوة: تلك الحركات البسيطة، التي لم تكن تمثل عائقا أمام ذهني المسكين، كانت تعيد رتقه.

وبأكبر قدر ممكن من التحفّظ، عدت لتقديم الروزنامات. كنت أجهد كي أظهر بمظهر المنشغلة على الدوام، وبي خوف كبير من إعادتي إلى الأرقام.

ثم جدّ حادث دون سابق إنذار: قابلت الرّبّ. كان الخسيس نائب الرّئيس قد طلب مني أن أجيئه ببيرة وكأنه لا يدرك أنه سمين بما فيه الكفاية.

جئته بطلبه في نوع من الاستنكاف المهذّب. وأنا أغادر عرينه، فُتح باب المكتب المجاور فإذا بي أقف وجها لوجه أمام الرئيس.

ترامقنا في اندهاش. الأمر من ناحيتي مفهوم، إذ قيّض لي أخيرا أن أرى ربّ يوميموطو. أما من ناحيته هو، فأمره يستعصي قليلا على التفسير: هل كان يعلم بوجودي؟ بدا أن الأمر كذلك لأنه هتف بصوت ذي جمال ولطف عجيبين:

-أنت بالتأكيد أميلي- صَنْ!

ابتسم ومدّ يده يصافحني. كنت مبهوتة بشكل جعلني عاجزة عن النّطق. كان السيد هَنيدا في الخمسين من عمره، رقيق العود، أنيق الوجه أناقة نادرة، تعكسُ انطباعا بالطيبة العميقة واتّساق القسمات. نظر إلي نظرة ودّ كانت من الصّدق ما جعلني أفقدُ ما تبقّى لي من رباطة جأش.

انصرف وبقيت وحدي في الممرّ، عاجزةً عن الحركة: هكذا إذنْ، اتّضح أنّ رئيسَ معقل التّعذيب حيث أُجلد كلّ يوم بأكثر الإهانات عبثًا، وأتعرّض لكلّ أنواع الاحتقار، أنّ سيّد هذا الجحيم هو ذلك الإنسان الرّائع ذو الرّوح السامية!

هذا شيء عصيّ على الفهم: شركةٌ يقودها رجلٌ في مثل هذا النّبل الصّارخ يفترضُ أن تكونَ جنّة نقية، فضاء للانشراح والبشاشة. أيّ لغز هذا؟ هل يمكن أن يبسط الربّ سلطانه على الجحيم؟

كنت لا أزال مسمرة من فرط الذهول، حين جاءني الجواب. فُتح بابُ الرجل السمين أوموشي وسمعت صوت الدنيء يصرخ بي:

- ماذا تفعلين هنا؟ نحن لا ندفع لك أجرا كي تتسكعي في الممرات؟

صار كل شيء واضحا الآن: في شركة يوميموطو، الرئيس هو الربّ، أما نائبه فهو الشيطان.

أما فوبوكي فلم تكن لا إلها ولا شيطانا، كانت امرأة يابانية.

ليست كل اليابانيات جميلات، ولكن إذا قدّر لإحداهنّ أن تكون جميلة، فما على الأخريات إلا أن يحسبن لها حسابا.

كل جمال فاتن، ولكن الجمال الياباني أشدّ فتنة. أولا، لأن ذلك البياض الزنبقي الناصع، وتينك العينين الحلوتين، وذلك الأنف ذا الجناحين الفريدين، وتلك الشفاه المرسومة بدقة، وتلك القسمات ذات الرقة المركبة، يجعلها تبز أكثر الوجوه اكتمالا. ثانيا، لأن أنماطه تؤسلبه وتجعل منه لوحة فنية صعبة الإدراك. أخيرا، وخصوصا، لأن جمالا يصمد أمام هذا العدد من المشدّات الجسدية والذهنية، وهذا القدر من الإرغام والسحق والمحظورات العبثية والعقائد والخنق والتدمير والسادية والصمت المتواطئ والإهانات - جمال كهذا إذن هو معجزة بطولية.

ليس لأن اليابانية ضحية، كلا، فمن بين نساء الأرض جميعا هي ليست أدناهن مرتبة، لأن سلطانها هائل، وأنا أتحدث من موقع العارفة.

كلا، إذا كان للمرء أن يُعجَب باليابانية -وهو حتما سيُعجب بها- فلأنها لا تنتحر. يقع التآمر على مثلها العليا منذ نعومة أظفارها، حيث يسكبون الجصّ في دماغها: «إذا بلغتِ الخامسة والعشرين ولم تتزوجي، سيكون لك أسباب وجيهة كي تخجلي من نفسك»، «إذا ضحكت فلن تكوني متميّزة»، «إذا عبّر وجهك عن إحساس ما فأنت مبتذلة»، «إذا تحدثت عن وجود شعرة على جسدك فأنت مدنسة»، «إذا قبّلك شابّ على خدّك في الطريق العام فأنت فاجرة»، «إذا استحليت أكلك فأنت خنزيرة»، «إذا استطبت النوم فأنت بقرة»، إلخ. قد تكون تلك التعاليم غير ذات قيمة لولا أنها تصيب الذهن.

لأن ما يُهال على رأس اليابانية عبر هذه العقائد التافهة في النهاية هو ألا تعقدي الأمل على ما هو جميل. لا تأملي المتعة لأن متعتك تدمّرك، لا تأملي الحبّ لأن ذلك لا يستحق جهدك، فالذين سيحبونك سيحبون السراب الذي من حولك وليس ما أنت عليه. لا تأملي أن تجيئك الحياة بأي شيء، لأن كل عام يمرّ يأخذ منك بعض الشيء. لا تأملي أي شيء حتى ما كان بسيطا كالاطمئنان، فليس لك أي مبرّر كي تكوني مطمئنّة.

علّقي أملك على العمل. حظوظك ضعيفة في الارتقاء نظرا إلى جنسك، فلتُعلّقي أملك إذن على خدمة شركتك. سوف يكسبك العمل مالا لن تفرحي به كثيرا، ولكن قد يصلح عند الزواج مثلا - لن تكوني من الغباء كي تتوقعي رجلا ما يريدك لذاتك.

عدا ذلك، يمكن أن تأملي العيش حتى سنّ الشيخوخة، رغم أن ذلك لا قيمة له على الإطلاق، وعدمَ ارتكاب ما يخل بالشرف الذي يعتبر غاية في حدّ ذاته. هنا تنتهي قائمة آمالك المشروعة.

وهنا تبدأ نظرية واجباتك العقيمة التي لا تنتهي. عليك أن تكوني منزهة عن المآخذ، لسبب بسيط وهو أنه الحدّ الأدنى. أن تكوني خالية من العيوب لن يفيدك في شيء سوى أنك فوق الشبهات، وهو في حدّ ذاته ليس مفخرة أو حتى متعة.

لن أستطيع أبدا تعداد واجباتك، فما من دقيقة في حياتك إلا وهي خاضعة لواحد منها. مثلا، حتىّ وأنت تختلين بنفسك في المرحاض لقضاء حاجة بسيطة هي تخفيف مثانتك، فأنت مطالبة بالحرص على أن لا يسمع شخص ما خرير جدولك. عليك إذن أن تسحبي طرّادة الماء باستمرار.

أذكر هذه الفرضية كي تفهمي ما يلي: إذا كانت حتى المجالات

الحميمة البسيطة خاضعة لتوصيات، فما بالك بالقواعد القسْرية الجسيمة التّي سوف تُرضخ الفترات الأساسية من حياتك.

تشعرين بالجوع؟ كُلي بمقدار ضئيل، لكي تظلّي رقيقةَ العود، فجمالك لن يحقّق لك أيّ مُتعة حسّية. المدائح الوحيدة التي قد تتلقينها لن تصدر إلا عن غريبي الأطوار، وكلنا نعرفَ أنهم يفتقدون الذّوق الرّفيع. إعجابك بحسنك أمام المرآة ينبغي أن يتمّ في إطار الخوف لا في إطار اللذة، فلن تجني من جمالك غير الرعب من فقده. إذا كنت فتاة جميلة فلن تكوني شيئا يذكر، وإن لم تكوني كذلك فأنت أقل من لا شيء.

واجبك أن تتزوجي، وحبّذا قبل بلوغ سنّ الخامسة والعشرين، فهو تاريخ انتهاء صلاحيتك. زوجك لن يحبك إلا إذا كان أبله، ولا سعادة لامرأة في أن يحبها رجل أبله. على أية حال، أن يحبّك أو لا يحبّك، فلن تشهدي منه ذلك. في الثانية بعد منتصف الليل، يلتحق بك رجل مجهد، سكران في الغالب، ليتهالك على السرير، ويغادره في السادسة صباحا دون أن يقول لك كلمة.

من واجبك أن تنجبي أطفالا تعاملينهم كأرباب حتى سنّ الثالثة، فهو العمر الذي تطردينهم فيه من الجنة بشكل قاطع، لتسجليهم في الخدمة العسكرية التي تدوم من سنّ الثّالثة حتى الثالثة عشرة ثم من سنّ الخامسة والعشرين إلى مماتهم. أنت مضطرة أن تلدي كائنات ستكون بائسةً بشكل رهيب لا سيّما أنها لُقّنت خلال أعوامها الأولى مبدأ السعادة.

هذا فظيع في رأيك؟ لست أوّل من خامر ذهنَه هذا الرّأي. أخواتك يفكّرن فيه منذ 1960، وها أنت ترين أنّه لم يأت بنتيجة. تمرّد عدد منهن، وقد تتمردين أنت أيضا أثناء الفترة الحرّة الوحيدة في حياتك، أي ما بينَ الثّامنة عشرة والخامسة والعشرين. لكنّك حينما تبلغين هذه

السّن، ستكتشفين أنك لم تتزوجي، وسوف ينتابك الخجل. ستتركين لباسك الغريب وترتدين بذلة نسويّة نظيفة وجوربين بيضاوين وخفين بشعين، وتخضعين شعرك البهيّ الأملس لتسريحة بائسة، وتشعرين بالارتياح إذا رضي بك رجل ما، زوجا كان أم ربّ عمل.

إذا صادف أن تزوجت عن حبّ - وهذا احتمال ضعيف - فسوف تكونين أكثر تعاسة لأنك ستكتشفين بنفسك أن زوجك يتعذب. والأفضل ألا تحبيه، فذلك سوف يجعله لا يبالي كثيرا عند سقوط مثله العليا، لأن زوجك لا يزال يحفظ بعضا منها، فقد عاش على وهم امرأة تحبه، ثم يكتشف أنك لا تحبينه، إذ كيف تحبين رجلا ولك كل هذا الجصّ الذي يجمّد قلبك؟ لقد فرضوا عليك من القيود ما يجعك عاجزة عن الحب. إذا أحببت رجلا فذاك ناجم عن سوء تربية. ستتصنعين خلال الأيام الأولى من زواجك أمورا كثيرة. ولا بدّ من الإقرار بألاّ وجود لامرأة تستطيع التصنّع باقتدار مثلك.

واجبك أن تضحي من أجل غيرك، ولكن لا يذهب بك الظنّ أن تضحيتك ستجعل من افتديتِهم سعداء، لأن ذلك سيجعلهم يخجلون منك. لا حظّ لك إذن أن تَسعَدي أو تُسعدي.

وإذا صادف -لأمر خارق- أن أفلت مصيرك من تلك التوصيات فلا تستنتجي أنك انتصرت، بل أنت أخطأت. على أية حال، ستتحققين منه في أسرع وقت، لأن انتصارك لن يكون إلا مؤقّتا. وإيّاك أن تستمتعي باللحظة: دعي خطأ التقدير هذا للغربيين. اللحظة لا تساوي شيئا، بل إنّ حياتك لا تساوي شيئا، فلا قيمة للزمن إذا كان دون عشرة آلاف سنة.

لا أحد يعتبرك دون الرجل مرتبة، إذا كان هذا يمكن أن يواسيك. أنت لامعة، هذا باد للعيان جميعا، بمن فيهم أولئك الذين يعاملونك باحتقار. ولو أمعنّا النظر رغم ذلك، فهل تجدين فيه عزاء؟ إذا ما

اعتبروك دونه، فهذا على الأقل سيجعل جحيمك مفهوما، لأنك سوف تتمكّنين من الخروج منه بإقامة الدليل على رجاحة عقلك، اعتمادا على مبادئ المنطق. إلا أنهم يعلمون أنك مساوية للرجل إن لم تكوني متفوقة عليه: وعندئذ يغدو جحيمك عبثيا، وهو ما يعني ألا سبيل لمغادرة ذلك الجحيم.

بلى، ثمّة سبيلٌ، سبيل وحيدةٌ لك الحقّ فيها، إلاّ إذا كنت قد ارتكبت حماقة اعتناق الديانة المسيحية: لك الحقّ في الانتحار. في اليابان، نحن نعرف أنه عمل مشرّف جدا. ولكن لا تتخيلي أن الآخرة فردوس من تلك الفراديس البهيجة التي يصفها الغربيون الظرفاء، فلا وجود في الجهة الأخرى لشيء مدهش. في المقابل، فكري في ما يجعلك تقدمين عليه: ذكرُك بعد الوفاة. إذا انتحرت، فسوف يصبح عملا متألقا يفخر به أقاربك. سيكون لك مكان متميز في قبو الدفن العائلي، هناك حيث للإنسان أن يعلل النفس بأمل كبير.

لن تستطيعي الانتحارَ بطبيعة الحال، ولكنك ستضعفين، طال الزّمانُ أم قصُر، وتقعين في فضيحة ما: كأن تتخذي لك عشيقا، أو تفرطي في الأكل، أو تصابي بالكسَل - لستُ أدري - لقدْ لاحظت أن البشَر بصفة عامة، والنساء بصفة خاصة، لا يستطيعون العيْش طويلا دون أن يقعوا في أحد الانحرافات المرتبطة باللذّة الجسدية. ونحن لا نتوقّى هذا الانحراف بدافع الطهرية [1]، فنحن بعيدون كلّ البعد عن ذلك الهوس الأمريكيّ.

في الحقيقة، ينبغي تجنب الشّهوة الحسية لأنها تجعلنا ننضحُ عرقا، ولا شيء معيبا أكثر من العرق. إذا أكلت طبق مكرونتك الساخنة في لقم كبيرة، إذا استسلمت لسعار الجنس، إذا قضيت شتاءك في

(1) الطهرية: مذهب طائفة بروتستانتية في إنجلترا وأمريكا ظهرت منذ القرن السادس عشر وتدعو إلى التمسك بالطهر والفضيلة. (المترجم).

النعاس قرب الموقد فسوف تعرقين، عندئذ لن يشكّ أحد في ابتذالك.

لا مجال للتردّد بين الانتحار وسيلان العرق، فبقدر ما تكون إراقة الدم باهرة، يكون سيلان العرق شيئا مقززا. إذا انتحرت فلن تتفصدي عرقا بتاتا، وسوف ينتهي قلقك إلى الأبد.

لا أحسب أن مصير الياباني أكثر مدعاة للحسد، بل إن الواقع يثبت العكس. أما اليابانية فهي على الأقل تملك إمكانية مغادرة جحيم الشركة بالزواج. وعدم العمل في الشركة يبدو لي غاية في حدّ ذاتها.

غير أن الياباني ليس مختنقا، إذ لم يُدمّر فيه كل أثر للمثل العليا منذ صغر سنه، فهو يتمتع بأكثر حقوق الإنسان جوهرية: حقه في أن يحلم ويأمل. وهو لا يمنع نفسه من ممارسته، حيث يتخيل عوالم وهمية يكون فيها سيّدا حر الإرادة.

في حين أن اليابانية لا تتمتع بهذا الحق إلا إذا كانت حسنة التربية - وهي حال أغلبهن. لقد سلبت منها تلك الملكة الجوهرية. ولهذا أعرب عن إعجابي العميق بكل يابانية لم تقدم على الانتحار، فبقاؤها على قيد الحياة يعدّ فعل مقاومة يتسم بشجاعة مترفعة وجليلة في الوقت نفسه.

كذلك فكرت وأنا أتملى فوبوكي.

- هل لي أن أعرف ماذا تفعلين؟ سألتني في نبرة لاذعة.

- أحلم. ألا يراودك الحلم أبدا؟

- أبدا.

ابتسمتُ. كان السيد صايطو قد أصبح أبا لطفل ثان. ولد. من أعاجيب اللغة اليابانية أنه يمكن إنشاء أسماء إلى ما لا نهاية، انطلاقا من كل مجالات الخطاب. من بين تلك الغرائب التي تتوافر منها أمثلة أخرى في الثقافة اليابانية، أن اللاتي لا حق لهن في الحلم

يحملن أسماء تبعث على الحلم، مثل فوبوكي. فالأولياء يسمحون لأنفسهم باختيار أكثر الأساليب الغنائية رقة عند تسمية طفلة. ولكن في المقابل، حينما يتعلق الأمر بتسمية طفل، فإن ابتكار الأعلام غالبا ما يأتي في هزء معيب.

وبما أنّه لا يوجد مانع لاستعمال فعل في صيغة المصدر لتسمية طفل، فإن السيد صايطو، أطلق على ابنه اسم «تسوطوميرو» ومعناه «عَمِلَ». فكرت في الطفل مثقلا ببرنامج كهذا في شكل هوية، فراودتني رغبة في الضحك.

تخيلته بعد بضع سنوات عائدا من المدرسة، وأمه تهتف به: «عمِلَ! اذهب لتعمل!» وإن صار عاطلا؟

كانت فوبوكي منزهة عن المآخذ. عيبها الوحيد أنها بلغت التاسعة والعشرين ولم تتزوج بعد. ولا شكّ أن ذلك مبعث خجلها. ولو فكرنا قليلا، لرأينا أن امرأة شابة في مثل جمالها لم تعثر على زوج لأنها نفذت بصرامة القاعدة المثلى التي تُستعمل اسما لابن صايطو. منذ سبع سنوات، أغرقت وجودها كله في العمل، بشكل مثمر في ما يبدو ما دامت قد حققت ارتقاء مهنيا قلّ أن تحققه أنثى.

ولكن كان من المستحيل عليها أن تتزوج وهي تزاول مثل هذا العمل الدؤوب. ومع ذلك، لا يمكن لومها على كثرة العمل، فالياباني يرى أنه لا يعمل بما فيه الكفاية. ثمة إذن تنافر في القانون الخاص بالمرأة، فهي من جهة فوق الشبهة تعمل بجهد جهيد يقودها إلى تجاوز سن الخامسة والعشرين دون زواج، ومن جهة أخرى، ولذلك السبب تحديدا، فهي في قلب الشبهة. إن قمة السادية في هذه المنظومة تكمن في الإحراج[1] الذي تعاني منه: احترام تعاليمها يؤدي إلى عدم احترامها.

(1) وضع رأيين متعارضين لكلّ منهما حجّته في الجواب عن قضية بعينها.

هل كانت فوبوكي تخجل من عنوستها؟ دون ريب. كانت شديدة الهوس بأدائها المتقن، ولم تكن تسمح لنفسها بأدنى إخلال للتعاليم السامية. كنت أتساءل أحيانا عمّا إذا كان لها عشّاق عابرون: ما لا يتطرق إليه الشكّ هو أنها لا تتبجح بجريمة الإساءة للناديشكو (الناديشكو أي «الزنبق» ويرمز للمثل الأعلى الذي نحنّ إليه أي الفتاة اليابانية العذراء). أنا أعرف أوقات دوامها ولا أرى كيف يمكن أن تغامر ولو مغامرة عابرة.

كنت أراقب سلوكها حينما تكونُ في حضرة رجل أعزب، وسيما كان أم دميما، شابّا أم عجوزا، بشوشا أم منفّرا، ذكيّا أم غبيّا، لا يهمّ، المهم لديها ألا يكون دونها مرتبة على مستوى السلّم الوظيفي في شركتنا أو في شركة أخرى: وفجأة تصبح رئيستي رقيقة بشكل ملحّ يكاد يتحوّل إلى عدوانية، إذ يعتري يديها توتّر شديد وهما تتحسّسان حزامها العريض الذي لا ينفكّ يغادر مكانه حول خصرها الشديد النحول، فتعيدان إلى الأمام حلقته التي حادت عن المركز، ويصبح صوتها مداعبا إلى حدّ أشبه بالأنين.

في معجمي الداخلي أسميت ذلك «الاستعراض الزفافي للآنسة موري». كان أمرا مضحكا أن أرى جلاّدتي تقوم بحركات القِرَدة تلك التي تسيء إلى جمالها وإلى مكانتها في الآن نفسه. غير أني لا أملك أن أمنع قلبي من الانقباض، خصوصا أن الذكور الذين تستعرض أمامهم محاولة الإغراء المؤسفة تلك لا يلاحظون منها شيئا ولا يحملون لها أثرا، فأودّ أحيانا أن أرجّ كلّ واحد منهم وأصرخ فيه:

- هيّا، كن شهما، ألا ترى المعاناة التي تكابدها من أجلك؟ صحيح أن هذا لا يجعلها أكثر حظوة، ولكن لو تعرف كم هي جميلة حين لا تأتي هذه الحركات! بل هي جميلة فوق اللزوم بالنسبة إليك.

كان عليك أن تذرف دموع الفرح أن تتمناك درّة كهذه.

أما فوبوكي فلكم أود أن أقول لها:

- كُفّي عن هذا! أتظنين حقّا أن حركاتك السينمائية المزرية ستجذبه؟ لأنت أشدّ إغراء حين تشتمينني وتعاملينني كما تعامل سمكة متعفّنة. تصوّري أن الماثل أمامك هو أنا، إن كان هذا يمكن أن يساعدك. كلّميه وفي ذهنك أنك تتوجّهين إليّ، تكوني عندئذ مُذلّة متكبّرة، فتقولي له إنه مختلّ عقليا، عديم الفائدة - سترَين، إنه لن يبقى بارد القلب.

كنت أودّ خصوصا أن أهمس لها:

- أليس بقاؤك عزباء حتى آخر يوم في حياتك خيرا لك ألف مرة من أن تثقلي كاهلك بهذا الناحل الشّاحب كإصبع؟ ماذا ستفعلين بزوج كهذا؟ وكيف تخجلين من أنك لم تتزوجي رجلا من هؤلاء الرجال، وأنت الفاتنة كآلهة الأوليمب، وأروع إبداع في هذا الكون؟ كلهم تقريبا أقلّ منك قامة: ألا ترين في ذلك علامة؟ أنت قوس أكبر من أن يناسب أولئك الرماة التافهين.

بعد انصراف الرجل/الطريدة، يتحول وجه رئيستي من الغنج إلى البرود التامّ في أقل من ثانية. وليس من النادر ساعتها أن تصادف نظرتي الساخرة فتصرّ شفاهها في حنق.

في إحدى الشركات الصديقة ليوميموطو يعمل رجل هولندي في السابعة والعشرين من عمره، يقال له بيات كرامر. وبالرغم من كونه غير ياباني، فإنه بلغ رتبة وظيفية تعادل رتبة معذبتي. ولما كانت قامته تبلغ مترا وتسعين، قدّرت أنه خطيب ممكن لفوبوكي. ذلك أنه كلما مرّ بمكتبنا، اندفعت في استعراضها الزفافي المتوتر وهي تدير حزامها وتعيد.

كان رجلا طيبا حسن الهيئة. وهو زوج مناسب خصوصا لكونه هولنديا، هذا الأصل الجرماني تقريبا يجعل انتماءه إلى العرق الأبيض أقل أثرا.

وفي يوم قال لي:

- أنت محظوظة بالعمل مع الآنسة موري. إنها في غاية اللطف.

أضحكني هذا التصريح، فقررت استغلاله: أعدته على زميلتي مع ابتسامة ساخرة عند ذكر «لطفها»، وأضفت:

- هذا يعني أنه مغرم بك.

نظرت إلي في دهش:

- صحيح؟

- أجزم بذلك، أجبت مؤكّدة.

ظلت لحظات مرتبكة. وهذا ما قد يكون خامر ذهنها: «هي بيضاء تعرف عادات البيض. هذه المرة يمكن أن أثق فيها. ولكن لا ينبغي إطلاقا أن تكون على بيّنة.»

تصنّعت البرود وقالت:

- هو صغير بالنسبة إلي.

- هو يصغرُك بعامين، وهذا في نظر التقاليد اليابانية هو الفارق المثالي لتكوني أنيصان نيوبو، «زوجة وأختا كبرى». فاليابانيون يعتقدون أن تلك أفضل زيجة، حيث تكون المرأة أكثر خبرة بقليل من الرجل حتى تريحه.

- أعرف، أعرف.

- في هذه الحالة، ما هو مأخذك عليه؟

لزمت الصمت. كان واضحا أنها تقترب من حالة الزهو والانتشاء.

وبعد أيام، حين أُعلن عن مَقدم بيات كرامر. اجتاح المرأة الشابة انفعال رهيب.

المصيبة يومها أن الطقس كان شديد الحرّ. كان الهولندي قد خلع عنه سترته، فلاحت على قميصه دوائر عرق واسعة في شكل هالات عند الإبطين. لمحتُ فوبوكي وقد تغيّر لونها. جهدتْ أن تتحدّث بصورة طبيعية، كأنها لم تلاحظ شيئا. ولكن كلماتها بدت غير صادقة، حتى أنها كانت تدفع برأسها إلى الأمام عند كل كلمة لكي تُخرج الأصوات من حنجرتها. فوبوكي التي عرفتها دوما على جانب كبير من الجمال والهدوء صارت الآن في هيئة غرغر يتأهب للدفاع عن نفسه.

كانت تسلك ذلك السلوك المثير للشفقة، وهي تسترق النظر إلى زملائها، على أمل ألا يكونوا قد لاحظوا أي شيء. ولكن، كيف نرى أن شخصا قد رأى؟ بل كيف نرى أن يابانيا قد رأى؟ كانت عيون موظفي يوميموطو تعبر عن التعاطف الصامت الذي يسود في العادة كل لقاء بين شركتين صديقتين.

الأكثر طرافة أن بيات كرامر لم يلاحظ شيئا من الفضيحة التي هو موضوعها، ولا من الأزمة الباطنية التي تخنق ذات اللطف الفائق الآنسة موري. كان منخراها يرفّان: لم يكن من الصعب التكهّن بالسبب، فقد كانت الغاية من وراء ذلك تبيّن ما إذا كانت فضيحة إبطي الهولندي تُرفع قربانا مشتركا لدى النوعين.

هنا، ودون أن يعلم، حدّ الهولندي اللطيف من إسهامه في تطور الجنس الأوراسي: إذ لفت انتباهه منطاد يحلق في الفضاء، فجرى نحو الفرجة البلورية، وإذا بتلك النقلة السريعة تولّد في الجوّ المخيّم شهبًا كالشماريخ من ذرّات شمّية نثرتها ريح الجري عبر المكتب. لم يعد ثمة مجال للشكّ: عرق بيات كرامر له رائحة نتنة.

لا أحد في المكتب العملاق يمكن أن ينكر ذلك. أما التحمس الطفولي الذي أظهره الشابّ لمنطاد إشهاري يحلّق في سماء المدينة بانتظام، فلم يبد أنه ترك أثرا في أيّ كان.

بعد انصراف الغريب ذي الرائحة النتنة، بدت رئيستي ممتقعة وكأن الدّم انقطع عن وجهها، مع أن وضعها سوف يزداد تأزما. جاءت الهجمة الأولى من رئيس القسم السيد صايطو:

- لم أعد قادرا على تحمل دقيقة أخرى!

وبذلك فسح المجال للاغتياب، وسرعان ما وجد الآخرون الفرصة سانحة:

- هل يعي أولئك البيض أن رائحتهم كرائحة الجبن؟

- لو نتوصل إلى إفهامهم بأن رائحتهم نتنة فسوف يكونُ لنا في الغرب سوقٌ خرافية لمزيلات روائح فعالة!

- قد نساعدهم على جعل روائحهم أقل نتونة، ربما. ولكننا لن نستطيع منعهم من إفرازات العَرق. ذلك من طبيعة جنسهم.

- لدى الغربيين، حتى النساء الحسان يعرقن.

كانوا يطيرون فرحا، دون أن يخطر ببال أي واحد منهم أن تعاليقهم قد تخدش مشاعري. في البداية، دغدغ موقفهم مشاعري، فلعلهم لا يعتبرونني بيضاء، ولكن سرعان ما اكتشفت أنهم إنما ينطقون بذلك أمامي لأنني ببساطة لا قيمة لي في نظرهم.

لم يكن فيهم شخص واحد قادر أن يفهم ما يعنيه ذلك الفصل بالنسبة إلى رئيستي: لو لم يثيروا فضيحة إبطي الهولندي، فربما ظلت تعيش على الوهم وتغض الطرف عن تلك العاهة الخلقية للخطيب المأمول.

منذ تلك اللحظة، باتت تدرك أن كل شيء مستحيل مع بيات كرامر:

أن تقيم معه أبسط علاقة سيكون أشد أثرا من أن تفقد صيتها، سوف تفقد كرامتها. ينبغي أن تعتبر نفسها محظوظة، فما من أحد سواي كان يعلم بنواياها تجاه ذلك الأعزب.

عادت إلى العمل مرتفعة الهامة، مصرورة الفكين. من تصلّب قسماتها بحدّة، استطعت أن أقدّر كم آمالا علّقت على ذلك الرجل، دون أن أنسى دوري، فأنا التي شجعتها، وهل كانت تفكّر فيه بجدّ لولاي؟

إذا كانت تتألم، فالذنب ذنبي بنسبة كبيرة. قلت في نفسي إنّ ما حصل كان يفترض أن يسرّني، ولكن لم يداخلني أي سرور.

كنت قد غادرت عملي في المحاسبة منذ ما يزيد عن أسبوعين، حينما انفجرت المأساة.

يبدو أني نُسيتُ في شركة يوميموطو، وهو خير ما يمكن أن يحدث لي. بدأت أبتهج، ومن عمق فقداني الطموح بشكل لا يخطر على بال، كنت لا أرى مصيرا أفضل من جلوسي إلى المكتب أتأمل الفصول في وجه رئيستي. تقديم الشاي والقهوة، رمي نفسي بانتظام عبر النافذة، عدم استعمال الآلة الحاسبة... كلها كانت أنشطة تملأ حاجتي الرهيفة أو أكثر إلى إيجاد موطئ قدم في الشركة.

كان لاستراحتي الشبيهة باستراحة أرض بور أن تدوم إلى ما لا نهاية له، لو لم أرتكب ما يمكن تسميته حماقة.

رغم كل شيء، أنا أستحق وضعيتي. لقد بذلت قصارى جهدي كي أثبت لرؤسائي أن حسن إرادتي لا يمنعني من أن أشكّل كارثة. الآن فهموا. لا شكّ أن سياستهم المضمرة هي من قبيل: «لتكفّ تلك الفتاة عن لمس أيّ شيء.» كنت في مستوى مهمتي الجديدة.

ذات يوم، سمعنا عن بعد ما يشبه هزيم الرعد في الجبل: كان

السيد أوموشي يصرخ. ثم اقترب الصراخ، ونحن نتبادل النظرات في توجس ورهبة.

فُتح باب قسم المحاسبة مثل سدّ ضيق انهار تحت ضغط كتلة اللحم لنائب الرئيس التي تدحرجت بيننا. توقف وسط الحجرة وصرخ بصوت غول يطالب بغَدائه.

- فوبوكي- صَنْ!

فعرفنا عندئذ من سيحرق قربانا لنهم وثنه القرطاجني. اعترى من لم يطلهم غضبه مؤقتا ارتياح تلته قشعريرة جماعية ملؤها تعاطف صادق.

ما لبثت رئيستي أن نهضت واتخذت وقفة متصلبة. كانت تنظر أمامها، أي ناحيتي، دون أن تراني، وتنتظر مصيرها رائعة في رعبها المكبوت.

للحظة، ظننت أن أوموشي سيستلّ سيفا مخيفا من بين ثنايا تورّماته الدهنية ليقطع رأسها، ويقينا لو يقع بقربي أنا فسوف أتلقّفه وأحبوه محبّتي إلى آخر يوم في حياتي.

«ولكن لا، قلت لنفسي أقنعها، إنها وسائل عصور غابرة. سيتصرف مثلما اعتاد: يدعوها إلى مكتبه ويلقنها درس القرن.»

قام بما هو أدهى. هل كان ضيق الخاطر أكثر من العادة؟ أو لأن ضحيته امرأة؟ لم يسلّط عليها تقريع الألفية في مكتبه، بل على عين المكان، أمام موظفي قسم المحاسبة الأربعين.

لا يمكن أن نتصور مصيرا أكثر إهانة لأي إنسان، ولأي ياباني بوجه خاص، وللمتكبرة الرائعة الآنسة موري بوجه أخصّ، من تلك الإطاحة العلنية. كان الوحش يريدها أن تفقد كرامتها. هذا واضح.

دنا منها ببطء كأنه يستلذّ مسبقا سطوة نفوذه المدمّر، ولم يتحرك

من فوبوكي رمش. كانت أشدّ فتنة من أي وقت مضى.ثم بدأت الشفاه المتعجنة في الاختلاج فأخرجت دفعة من صيحات لا تنتهي.

من عادة أهالي طوكيو ميلهم إلى التحدث بعجلة أسرع من الصوت، خصوصا إذا كانوا يتبادلون الشتائم. ونائب الرئيس ليس من العاصمة فحسب بل زاد على ذلك أنه سمين سريع الغضب، وهو ما يثقل صوته بحمم من الصخب البذيء: وكان من نتيجة تلك العوامل العديدة أنني لم أفهم شيئا من الاعتداء الشفوي اللامتناهي الذي انهال على رئيستي.

في هذه الحالة، حتى إن فرضنا أن اللغة اليابانية غريبة عني فإني سوف أفهم ما يجري: كان الرجل بصدد تسليط عقوبة معيبة على إنسان، على مسافة ثلاثة أمتار مني، وهو مشهد منكر. كنت على استعداد أن أدفع الغالي والنفيس كي يتوقف، ولكنه لم يتوقف: بدا أن الدويّ الصادر من جوف الجلاّد لا ينضب.

أي جرم اقترفت فوبوكي كي يَنزل بها عقاب كهذا؟ لم أتوصل لمعرفته أبدا. ولكني في نهاية الأمر أعرف زميلتي: مؤهلاتها، جدّها في العمل، ضميرها المهني. كانت فريدة، وأخطاؤها، مهما كانت، هي طفيفة دون ريب. وحتى إن لم تكن كذلك، فالمفروض أن يقع اعتبار القيمة العظيمة لامرأة كهذه من الطراز الأول.

قد أكون ساذجة إذ أتساءل عن نوع الخطأ الذي ارتكبته رئيستي، وأغلب الظّن أنها لم ترتكب ما يمكن أن تؤاخذ عليه. فالسيد أوموشي هو الرئيس: وله الحقّ، إن رغب، في أن يجد ذريعة تافهة ليباشر نهمه السادي على هذه الفتاة التي تبدو مثل عارضة أزياء، دون أن يبرر سلوكه.

شعّ ببالي فجأة أني أشهد حلقة من الحياة الجنسية لنائب الرئيس

الذي يستحق لقبه عن جدارة[1]: ألا يزال قادرا على مضاجعة امرأة وله جسد بهذه الضخامة؟ وكتعويض عن ذلك، فإن حجمه ذاك يجعله أميلَ إلى الزعيق وترهيب القوام الهشّ لهذه الحسناء. كان في الواقع بصدد اغتصاب الآنسة موري، وهو يمارس أكثر غرائزه وضاعة بحضور أربعين شخصا، ليضيف إلى تلذّذه متعةَ التعرّي أمام الناس.

كان هذا التّفسير صائبا إلى حدّ كبير إذ أبصرت جسد رئيستي يترنّح برغم صلابتها، وشموخها: إذا كان جسدها قد رضخ فذاك دليل على أنها تتعرض لاعتداء ذي طابع جنسي. انخذلت رجلاها كما تنخذل رجلا عاشقة مرهقَة، وتهالكَتْ على الكرسيّ.

لو كنت المترجمة الفورية لخطاب السيد أوموشي لكانت ترجمتي كالتالي:

- نعم، أنا أزن مائة وخمسين كيلوجرام وأنت تزنين خمسين، أي أننا نزن معا قنطارين وهذا يثيرني. شحمي يضايقني في حركاتي، وسوف أجد صعوبة في إشباع رغبتك، ولكن بفضل كتلتي الضّخمة، يمكن أن أقلبك وأسحقَك، وهذا يستهويني كثيرا، خصوصا أمام هؤلاء الحمقى الذين ينظرون إلينا. أعشق كسر كبريائك، أعشق ألا يكون لك الحق في الدفاع عن نفسك، أعشق هذا النوع من الاغتصاب!

لعلّي لم أكن الوحيدة التي فهمت طبيعة ما يجري: فالزملاء من حولي كانوا فريسة لحرج عميق، يحاولون ما استطاعوا أن يحوّلوا أنظارهم ويخفوا خجلهم خلف ملفاتهم أو شاشة حاسوبهم.

الآن صارت فوبوكي مطوية على اثنين، مرفقاها الناحلان على

---

(1) Vice تعني النائب حين تسبق منصبًا مّا (رئيس، مستشار، قنصل...) وتعني حين ترد مفردةً: الرذيلة والمنكر ونزعة الشرّ...

المكتب، وجُمْعاها المقبوضان يشدّان جبينها، والرشّاش الشفويّ لنائب الرئيس يهزّ ظهرها الهشّ في تواتر منتظم.

لحسن حظي، لم أكن من الحماقة كي أنساق خلف ما يعتبر في مثل هذه الحالات عملا لا إراديا، أي التدخل. فلا شكّ أن ذلك سوف يزيد مصير الضحية سوءا. ومع ذلك، سيتعذّر علي الادعاء بأني فخورة بإحجامي الرصين عن التدخل. الشرف يعني في الغالب أن يكون المرء أحمق. أليس من الأفضل أن أتصرف مثل غبية عوض تمريغ شرفي؟ حتى اليوم، ما زلت أخجل من تقديمي الذكاء على الجنون. كان يفترض أن يتدخل شخص ما، وبما أنّه لم يجازف منهم أحد، كان من المفروض أن أضحي بنفسي.

صحيح أن رئيستي لن تغفر لي ذلك، ولكنها ستكون مخطئة: أليس الأسوأ أن نتصرف كما فعلنا؟ أن نتابع ذلك المشهد المذلّ دون أن نتحركّ - ألا يكمن الأسوأ في خضوعنا المطلق للسلطة؟

كان عليّ أن أقيس بالعدّاد الزمنيّ مدّة التقريع، فلقد كان الجلاد ذا طاقة كبيرة، بل يُخيل إليّ أنّ صرخاته تزداد قوة بمرور الوقت وهو ما يدلّ -إن كنّا لا نزال بحاجة إلى دليل- على الطبيعة الهرمونية للمشهد: كمَثل المتلذذ الذي تتجدّد قواه أو تتضاعف إذا ما شاهد هياجه الجنسي، كان نائب الرئيس يزداد عنفا وصراخه لا يفتأ يطلق طاقة يهدّ وقعها المرأة المسكينة شيئا فشيئا.

في النهاية، أتى علينا حينٌ مثبط تماما: فكما هو الشأن دون ريب في حالات التعرض لاغتصاب، اتضح أن فوبوكي ارتدّت إلى مستوى سلوكي سابق. هل كنت الوحيدة التي سمعت صوتا ضعيفا، صوت طفلة في الثامنة تئنّ مرتين:

- أوكوروما. أوكوروما.

ومعناه في سجلّ لغة الذّنوب الأكثر تداولا لدى الصغار، كذلك الذي يمكن أن تستعمله طفلة عند احتجاجها على والدها، أي ما لن تستعمله الآنسة موري إطلاقا لمخاطبة رئيسها:

- لا تغضب. لا تغضب.

هو توسلٌ لا طائل من ورائه، كتوسل غزالة لوحش مزّق أوصالها ونهش نصفها كي يدعها في سلام. ولكنه أيضا خرق واضح لمبدأ الخضوع للأمر القاضي بعدم الدفاع عن النفس ضدّ ما يصدر من فوق. بدا أن السيد أوموشي ارتبك قليلا أمام الصوت الواهن، غير أن ذلك لم يمنعه من الصراخ مجدّدا: ولعله رأى في هذا السلوك الصبياني ما يرضيه وزيادة.

بعد وقت بدا أزليا، انصرف الوحش، إما لأنه سئم لعبته، أو لأن هذا التمرين المنشط فتح شهيته لساندويتش مضاعف «فوتون بالمايونيز».

ران على قسم المحاسبة صمت جنائزي. لم يجرؤ أحد سواي على النظر إلى الضحية. ظلت خائرة بضع دقائق ثم وجدت القوة كي تنهض وتفرّ دون أن تقول كلمة.

لم أجد صعوبة لمعرفة المكان الذي هرعت إليه: أين تذهب النساء المغتصبات عادة؟ هناك حيث يجري الماء، حيث يمكن أن نقيء، وحيث يوجد أقل عدد ممكن من الناس. المكان الذي يستجيب لهذه المواصفات في شركة يوميموطو هو دورة المياه.

هناك ارتكبت حماقتي.

دار الدم في رأسي دورة واحدة: كان عليّ أن أهبّ لمواساتها. حاولت عبثا إقناع نفسي وأنا أستحضر الإهانات التي سلطتها عليّ والشتائم التي ألقتها في وجهي، فقد غلب على قراري تعاطفي السخيف: سخيف. ألِحّ على أنه كذلك: إن كان لا بدّ من التحرك ضدّ ما يقتضيه المنطق،

فالأفضل مائة مرة أن أكون قد تدخلت للفصل بين أوموشي ورئيستي، فذلك على الأقل سيعتبر عملا شجاعا. أما ما قمت به من بعد فهو ببساطة سلوك مهذب ولكنه غبيّ.

هرعت إلى دورة المياه. كانت تبكي أمام حوض المغسل. قدرت أنها لم تتفطن لدخولي، ولكنها للأسف سمعتني أقول:

- فوبوكي، أنا آسفة! أنا معك من كل قلبي. أنا أساندك.

كنت أدنو منها، وأمدّ إليها ذراعا ترتجف مواساة، حين رأيتها تلتفت إليّ وتصوب نحوي نظرة فيها دهش وفيها غضب، وإذا صوتها الذي ما عاد يعرف من شدّة صخبه المرضيّ يصرخ بي:

- كيف تجرئين؟ كيف تجرئين؟

لا شكّ أن الذكاء غاب عني يومها، إذ انبريت أشرح لها:

- لم أشأ إزعاجك، إنما أردت أن أعرب لك عن صداقتي...

وإذا هي، وقد بلغت من الكراهية مبلغ الذروة، تدفع ذراعي مثل مِلْوى وتصيح:

- ألا تسكتين! ألا تنصرفين!

لم أكن أريد ذلك في ما يبدو، إذ بقيت مسمّرة واجمة.

تقدّمت نحوي وفي عينها اليمنى هيروشيما وفي عينها اليسرى ناجازاكي، فأيقنت أنها لو كانت تملك حقّ قتلي لما تردّدت.

أخيرا، فهمت ما كان ينبغي عليّ فعله، فلُذت بالفرار.

عندما عدت إلى مكتبي، قضيت بقية النّهار متظاهرة بإنجاز عمل محدود، وتحليل غبائي، وهو من السعة بمكان.

لقد أهينت فوبوكي قلبا وقالبا أمام أنظار زملائها. والشيء الوحيد الذي استطاعت أن تخفيه عنا، أي آخر حصن من شرفها الذي أمكنها صونه، هو دمعها. فقد وجدت من القوة ما حال دون بكائها أمامنا.

وأنا، كالليقة، ذهبت لأتفرّج عليها وهي تبكي في ملجئها. لم تتصور أو تعتقد أو تقبل أن دافعي كان الطيبة، حتى وإن كانت طيبة غبية.

بعد ساعة، عادت الضحية لتجلس إلى مكتبها. لم ينظر إليها أحد، أما هي فقد قاستني بنظرة. ثقبتني عيناها بكره كتب عليه: «أنت، سترين حسابك.»

ثم استأنفت عملها كأن شيئا لم يكن، تاركة لي متسعا من الوقت لتبيّن العقوبة.

كان واضحا، من وجهة نظرها هي، أن تصرّفي كان محض مُجازاة بالمِثْل. هي تعرف أنها أساءت مُعاملتي في السّابق، وأن هدفي في رأيها كان الثأر دون أدنى ريب، وما ذهبت للتفرج على دموعها في دورة المياه إلا لكي أكيل لها الصاع صاعين.

لكم وددت أن أكذّب ظنها وأقول لها: «حسنا، كنت حمقاء رعناء، ولكنّي أتوسّل إليك أن تصدقيني: لم يكن لي من دافع يدفعني سوى إنسانيتي الطيبة، البسيطة، الغبية. صحيح أني حقدت عليك في السابق، ولكن عندما رأيتك تتعرضين للإذلال السافل، لم يعد يساورني غير التعاطف البدائي. فهل تشكين، وأنت على هذا القدر من النباهة، أنه يوجد في هذه الشّركة، لا، بل في هذه الأرض، شخص يكنّ لك التقدير والإعجاب ويخضع لسلطانك مثلي؟»

لن أعرف أبدا كيف يكون ردّها لو صارحتها بذلك.

من الغد، استقبلتني فوبوكي بوجه ذي صفاء أولمبي هذه المرة. «لقد تعافت، قلت في نفسي، هي الآن أحسن حالا.»

قالت لي بصوت هادئ:

- عندي لك مهمة جديدة. اتبعيني.

ما كدت أتبعها خارج القاعة حتى ساورني الشكّ: مهمتي الجديدة

ليست في قسم المحاسبة إذن؟ ما عساها أن تكون؟ وإلى أين تقودني فوبوكي؟

اتخذت خشيتي وجها أدقّ حينما لاحظت أننا نسير باتجاه دورة المياه. كلا، قلت في نفسي. يقينا أننا في آخر لحظة سننعطف يمينا أو يسارا، فنتجه إلى مكتب آخر.

لم ننحرف لا يمنة ولا يسرة، فقد قادتني فعلا إلى دورة المياه.

«لا شكّ أنها جاءت بي إلى هذا المكان الخالي لنتحاسب في قضية الأمس»، قلت في نفسي.

- هذا هو عملك الجديد.

وبوجه واثق، أرتني في لهجة محترفةٍ الأشغالَ التي سوف أتولى القيام بها من تلك اللحظة. تغيير اللفيفةً بـ«قماش جافّ نظيف» بعد استعمالها بالكامل في تنشيف الأيدي ؛ إعادة تزويد المراحيض بالورق الصحي - لهذا الغرض، عهدت لي بمفاتيح بالغة الأهمية لخلوة مهملات توضع فيها تلك الأشياء النفيسة بمعزل عن أطماع قد تكون خامرت أذهان المسؤولين في شركة يوميموطو.

ذروة التصعيد الدرامي بلغتها الحسناء حينما أمسكت بلطف فرشاة المراحيض لتشرح لي في جدّ صارم طريقة الاستعمال - هل كانت تعتقد أني أجهل ذلك؟ لم يخطر ببالي قطّ أنه ستتاح لي فرصة مشاهدة تلك الإلهة ماسكة بمثل تلك الأداة، فما البال وهي تشرح لي أنها صولجاني الجديد.

وفي قمة الانشداه سألتها:

- من الذي أخلفه؟

- لا أحد، فعاملات التنظيف يتعهّدن بذلك في المساء.

- هل استقلن؟

- لا، ولكن لعلّك لاحظت أن خدمات الليّل وحدها لا تكفي. ليس من النادر أثناء النهار ألاّ نفتقد لفافة جافّة، أو أن نصادف مرحاضا خاليا من الورق الصحّي، فهل يُعقل أن يبقى حوض مرحاض من المراحيض وسخا إلى آخر المساء. هذا شيء محرج لا سيّما عند استقبال موظفين كبار من خارج يوميموطو.

للحظة، تساءلت ما الذي يجعل حرج موظف كبير من مرحاض لوّثه موظف من خارج الشركة أشدّ وقعًا مما لو دنسه زميل له. لم يكن لي من الوقت ما يكفي للإجابة عن سؤال السلوك الحميد هذا لأن فوبوكي ختمت حديثها في ضحكة رقيقة:

- من الآن فصاعدا، لن نشكو - بفضلك أنت - من هذه المزعجات.

ثمّ انصرفَتْ. وبقيتُ في مكان ترقيتي الجديدة وحيدةً، ذاهلةً، جامدة، وقد تدلّت ذراعاي من شدة الدهشة. وإذا بالباب يُفتح من جديد فتطلّ فوبوكي. كما في المسرح، عادت لتزفّ لي ما هو أجمل:

- نسيت أن أقول لك: من البدَاهة أن يشمل عملك أيضا دَورة مياه الرّجال.

إذن سألخّص لكم الأمر. عندما كنت صغيرة، كنت أريد أن أصبح الربّ. وبعد مدّة قصيرة، فهمت أنّه مطلب كبير فأضفت قليلا من الماء المقدس إلى نبيذ قدّاسي: سأكون عيسى المسيح. وسرعان ما أدركت غلوّ مطمحي فرضيت بأن «أعمل» شهيدة عندما أكبر.

وحين كبرت قرّرت أن أقلّل من جنون عظمتي فأعمل مترجمة بإحدى الشركات اليابانية، ولكنّ، للأسف، كان عملا يفوق رغبتي فكان عليّ أن أتنازل عنه درجة لأصبح محاسبة، غير أنّ سقوطي الاجتماعي الصاعق كان بلا فرامل. فنُقلتُ إذن إلى مهمة من لا شيء. ولسوء حظي - والمفروض أن أتنبّه لذلك - كان هذا اللاشيء

فوق طاقتي. وعندئذ نُقِلتُ إلى مهمّتي الأخيرة: منظفة مراحيض.

من الجائز أن ننتشي بهذه المسيرة التي لا تحيد عن مجراها من الألوهية إلى المراحيض. إذ يُقال عن المغنية التي تستطيع أن تنتقل من الصوبرانو إلى الكونترالطو إن سلّمها النغمي واسع: وأنا بدوري يجوز لي التأكيد على تفرّد سلّم مواهبي، القادرة على الغناء في كل الطبقات الصوتية، ما تعلّق منها بالرّبّ أو بمدام بيبِي[1] على حدّ سواء.

بعد زوال أثر الذهول، غمرني أوّل ما غمرني ارتياح غريب، فالميزة الأولى حينما نكلَّف بجَلْيِ المراحيض الملوّثة هي أننا لن نخشى بعدها الانحدار إلى مرتبة أَدنىَ.

لعلّ ما جال بخلد فوبوكي هو كالتالي: «أنت تلاحقينني حتى دورة المياه؟ حسنا. ستبقين فيها.»

وبقيت.

أتصوّر أن أيّ شخص آخر في مكاني كان سيقدّم استقالته. أيّ شخص، ما عدا الياباني طبعًا. وقد كان تكليفي بهذه المهمة من قِبَل رئيستي وسيلة لإرغامي على التخلي عنها. ولكن الاستقالة تفقدني ماء الوجه. صحيح أن تنظيف المراحيض ليس عملا مشرّفا في نظر الياباني إلاّ أنّه لا يُفقد صاحبه ماء وجهه.

وأمام آفتين، ينبغي اختيار الآفة الأقلّ ضررا. وقد وقّعت عقدا بسنة، ينتهي مفعوله يوم 7 يناير 1991 ونحن لا نزال في شهر يونيو. لذلك سوف أصمد. سأتصرّف تصرّف يابانية.

وفي هذا لا أحيدُ عن القاعدة: على كلّ أجنبيّ يرغب في الاندماج في اليابان أن يحترم أعراف الإمبراطورية. والجدير بالذكر أنّ العكس

(1) تعبير دارج يشير إلى العاملة الساهرة على نظافة دورات المياه في المحلات الفرنسية.

خاطئ تماما: فاليابانيون الذين يستاؤون من قلّة مراعاة الآخرين لأعرافهم لا يستنكرون أبدا إخلالهم هم بأعراف الآخرين.

كنتُ أعي هذه المظلمة، ومع ذلك رضختُ لها رضوخًا تامًّا. إنّ مواقف الحياة الأشدّ غموضا تُعزَى في الغالب إلى استمرار الانبهار الطفولي الأوّل، فعندما كنت طفلة، بهرني جمالُ عالمي اليابانيِّ بشكل جعلني لا أزال أسلك طريقي في الحياة استنادا إلى ذلك المخزون العاطفي. أمّا الآن فلا أجد أمامي سوى فظاعة مقيتة لمنظومة تتنكّر لما أحببت، ورغم ذلك لا أزال وفية لتلك القيم التي ما عدت أؤمن بها.

لم أفقد ماء وجهي. وظللتُ طوال سبعة أشهر، ألازم دورة مياه شركة يوميموطو.

بدأتُ إذن حياة جديدة. ومهما بدا الأمر غريبا، فإنّي لم أشعر بنفسي قد لامست القاع لأن تلك المهنة، مقارنة بغيرها، أقلّ فظاعة من مهنة المحاسبة -وأعني هنا مهمتي في مراجعة مصاريف رحلات الأعمال- فبين عملية استخراج أرقام لا تني تتزايد في فصامها من حاسبة الجيب آناء النهار، وبين عملية استخراج لفائف الورق الصحي من خلوة المهملات، لن أتردد في اختيار الأخيرة.

في أدائي لما أصبح اليوم عملي، لم أشعر بأن الأحداث تتجاوزني. كان عقلي المعوق يفهم طبيعة المشاكل التي تطرح عليه. لم يعد الأمر يتعلق بالبحث عن سعر المارك في 19 مارس لتحويل فاتورة غرفة الفندق إلى ينْ، ثم مقارنة نتائجي بنتائج السيد المعني وتساؤلي لماذا يحصل هو على 23254 وأحصل أنا على 0499212 صرت مطالبة بتحويل القذارة إلى نظافة، وغياب الورق إلى توافر الورق.

الطهارة الصحية لا تتمّ بمعزل عن الطهارة الذهنية. لذلك أودّ أن أقول لكلّ الذين لنْ يتردّدوا في اعتبار خضوعي لقرار دنيء أمرًا غير

مشرّف، ما يلي: لم أشعر بالمهانة قطّ، في أيّ لحظة من تلك الشهور السبعة.

منذ أن تلقّيت المهمّة التي لا تخطر على بال، دخلتُ في بعد آخر من الوجود: عالم الهزل بما في الكلمة من معنى. أعتقد أنني انحدرت إليه بسبب ارتكاس نشاط آليّ. فلكي أتحمّل الشهور السبعة التي قضّيتها هنا، كان لا بدّ من أن أغيّر المرجعيات وأقلب ما كان يعتبر حتى الآن نقط استدلال بالنسبة إليّ.

فمن خلال مسار منقذ لملكات الحصانة لديّ، حصل ذلك التحول الداخلي بشكل فوري. وسرعان ما صار القذر في ذهني هو النظيف، والعار هو المجد، والجلاّد هو الضحيّة، والكريه هو المضحك.

أصرُّ على هذه الكلمة الأخيرة: عشت في تلك الأمكنة (وهو واقع الحال) أكثر الفترات مرحا في حياتي، وغيرها مما شهدت كثير. في الصباح، والمترو يقلّني إلى عمارة يوميموطو، تنتابني رغبة في الضحك ممّا ينتظرني. وعندما أعتلي سدّة وزارتي، كنتُ أجهد في مقاومة صخب الضحك الجنوني المتواصل.

في الشركة، مقابل مائة رجل، لا وجود لأكثر من خمس نساء، لم ترْتقِ منهنّ إلى درجة المسؤولية سوى فوبوكي. بقيَتْ إذن ثلاث موظفات يعملن في طوابق أخرى. وبما أني كنت مكلّفة بدورة مياه الطابق الرابع والأربعين فإن كنيف السيدات كان مكانا مخصصا لي ولرئيستي.

إنَّ حصر مجالي الجغرافيّ في الطابق الرابع والأربعين، بين قوسين، يثبت، إن اقتضى الأمر، البُطلان المطلق لتعييني، فإذا كان ما يسمّيه العساكر بلباقة «آثار الفرامل» على هذا القدر من الإزعاج للزوار، فإنني لا أفهم كيف يكون الإزعاج أقل في الطابق الثالث

والأربعين أو الخامس والأربعين.

لم أجهر بهذه الحجّة، ولو فعلتُ فربّما قيل لي: «أصَبتِ. من الآن فصاعدًا، ستكون مراحيض الطابقين الآخرين خاضعة لسلطتك. فقصرتُ طموحاتي على الطابق الرابع والأربعين.

لم يكن قلبي للقيم مجرّد توهّم. لقد أهينت فوبوكي فعلا بسبب ما تعتبره دون شكّ تجليًّا لمقاومتي السلبيّة. كان واضحا أنّها توقعت استقالتي. وببقائي في الشركة أكون قد استخففت بها، فانقلب الخزي عليها.

صحيح أنّ هذه الهزيمة لم يقع التصريح بها، ولكنّي وجدتُ لها قرائن.

فقد أُتيح لي أن أصادف في دورة مياه الرجال السيّد هَنيدا شخصيا. هذا اللقاء ترك انطباعا عميقا لدينا معا. لديّ أنا التي كان من الصعب عليها أن تتخيّل الربّ في هذا المكان، ولديه هو لأنه لم يكن على علم في ما يبدو بتعييني.

للوهلة الأولى، تبسّم لي ظنّا منه أنّني أخطأتُ دورةَ المياه المناسبة بسبب غبائي المعهود. ثم انطفأت بسمته حينما أبصرني أسحب لفيفة القماش التي فقدت نظافتها وجفافها لتغييرها بلفيفة أخرى. عندئذ فهم ولم يعد يجرؤ على النظر إليّ، وقد بدا شديد الحرج.

لم أتوقع أن يغيّر هذا اللقاء مصيري. فالسيّد هَنيدا كان رئيسا طيّبا فوق اللزوم كي يعيد النظر في قرارات أحد مرؤوسية، خصوصا إذا كانت صادرة عن أحد الموظفين الكبار، وبوجه أخصّ عن المرأة الوحيدة التي تتقلّد منصبا كبيرا في الشركة. ورغم ذلك كان لي من الدواعي ما يجعلني أعتقد أن فوبوكي اضطرّت إلى أن تشرح له سبب تعييني.

ذلك أنّها قالت لي في اليوم التّالي بصوت رصين وقد كنّا في دورة مياه النساء:

- إن كان لك ما يدعو إلى التذمّر فالواجب يقضي أن ترفعيه إليّ.

- أنا لم أتذمّر لأحد.

- تفهمين جيّدًا ما أعني.

ولم أفهم من ذلك شيئا. ماذا كان عليّ أن أفعل لأظهر بمظهر من لا تتذمّر؟ أن أهرب فورا من دورة مياه الرجال لأوهِم بأنّي أخطأتُ المكان؟

الثابت أنّي أُعجبتُ أيّما إعجاب بجملة رئيستي: «إن كان لك ما يدعو إلى التذمّر...» ما يستهويني أكثر في هذا القول هو «إن»: كان من الطبيعي ألاّ يكون لي داعٍ إلى التذمّر.

كان السلّم الوظيفي يمنح شخصين آخرين حق انتشالي من هذا المكان: السيد أوموشي والسيد صايطو.

ومن نافلة القول إنّ نائب الرئيس لا يعنيه مصيري. بالعكس، كان أكثر المتحمّسين لتعييني. فقد كان إذا لقيني في دورة المياه يهتف في فرح:

- شيء جميل أن يكون للمرء عمل، أليس كذلك؟

كان يقولها دون سخرية. لعلّه يعتبر أنّي أجد في هذه الخطّة الانشراح الضروري الذي لا يتحقق إلاّ بالعمل وحده. فأن يجد كائن عديم الكفاءة مثلي موقعا داخل الشركة يُعَدّ في نظره حدثا إيجابيا. أضف إلى ذلك أنه مرتاح دون شكّ لأنه ما عاد يدفع لي أجرا دون عمل.

ولو أن أحدا أوعز إليه بأن ذلك العمل يُهينني لتعجّب قائلا:

- ثم ماذا أيضا؟ هو دون كرامتها؟ يجب أن تعتبر نفسها محظوظة

بالعمل لحسابنا.

أمّا السيّد صايطو، فهو حالة مختلفة تماما. كان يبدو منزعجا جدّا من هذه المسألة. لاحظتُ أنّه يرتجف خوفا أمام فوبوكي: فلها من القوة والسطوة ما يفوقه بأربعين مرة. ولذا فلن يتدخّل مهما كانت الأسباب.

كان إذا صادفني في دورة المياه تستبدّ بوجهه النحيف تكشيرة عصبية. ورئيستي محقّة حينما حدّثتني عن إنسانيته، فهو رجل طيب ولكنّه جبان.

وكانت أكثر الحالات ضيقا، لقائي في هذا المكان بالرجل الممتاز السيد تينشي. فقد دخل وما كاد يبصرني حتّى تغيّرت سحنته. بعد زوال أثر المفاجأة، صار لونه برتقاليا. غمغم:

- أميلي- صَنْ...

وسكت، وهو يدرك ألاّ مجال للكلام. ثمّ بدر عنه تصرف عجيب: إذ خرجَ دون أن يقوم بما جُعل له ذلك المكان.

لا أدري هل زالت رغبته في فكّ ضيقه أو أنّه اتّجه إلى دورة مياه طابق آخر. بدا لي أنّه توصّل مرّة أخرى إلى الحلّ الأكثر نُبلا: كانت طريقته في التعبير عن شجبه لما آل إليه مصيري هي مقاطعة دورة مياه الطابق الرابع والأربعين، لأنّني لم أره بعد ذلك أبدا - وأيًّا ما تكن طيبته فلا أحسب أنه عقل خالص.

لم يمض وقت طويل حتّى فهمتُ أنّه كان ينشر الموعظة الحسنة من حوله، فبعد مروره، ما عاد يتردد على عريني أي موظف من قسم مشتقات الألبان. وشيئا فشيئا، لاحظتُ عزوفًا متناميًا عن دورة مياه الرجال، حتى من قبل الأقسام الأخرى.

باركتُ السيد تينشي. وفضلا على ذلك، فقد كانت تلك المقاطعة

انتقاما حقّا من شركة يوميموطو: فالموظفون الذين يفضّلون التوجّه إلى الطابق الثالث والأربعين يُضيعون في انتظار المصعد وقتا كان يمكن أن يخصصوه للشركة. وهذا في اليابان يسمّى تخريبا: أي أخطر الجرائم اليابانية، وهو من القبح ما يجعلهم يستعملون العبارة الفرنسية، لأنه ينبغي أن يكون المرء غريبا عن هذه الديار كي تخامره مثل تلك السّفالة.

هذا التعاطف أثلج صدري وأنعش ولعي بفقه اللغة: إذا كان أصل كلمة «بويكوت» هو مالك إيرلندي يدعى بويكوت، فإننا يمكن أن نفترض أن اشتقاق اسمه يحوي إشارة إلى ولد، ومن ثَمّ فإن حصار وزارتي كان ذكوريا صرفا.

لم يكن ثَمّة «جيرلكوت». في المقابل، كانت فوبوكي تبدو أكثر لهفة من ذي قبل على الذّهاب إلى دورة المياه، بل إنها قررت أن تنظف أسنانها بالفرشاة مرتين في اليوم: ولنا أن نتخيل التبعات المفيدة لحقدها على نظافة الفم والأسنان. كانت تحقد عليّ لعدم استقالتي إلى درجة أنها تختلق الأعذار كي تأتي للازدراء بي.

وكان هذا التصرف يسلّيني. هي تظنّ أنّ ذلك يُضايقني والحال أني، بالعكس، كنت سعيدة بأن تتاح لي مثل تلك الفرص المتعددة كي أتملّى جمالها الغاضب في هذا الخِدر الخاص بنا. لا يوجد صالون صغير للسيدات أكثر أنسا من دورة مياه السيدات بالطابق الرابع والأربعين: كنت كلما فُتح الباب، أعلم علم اليقين أن القادم رئيستي، بما أن النساء الثلاث الأخريات كُنّ يعملن في الطابق الثالث والأربعين. كانت إذن جلسة سرية، راسينية[1] تلتقي خلالها مُؤلّفتا تراجيديا في

(1) نسبة إلى Racine راسين (1639- 1699): كاتب فرنسي من أبرز كتاب المسرح التراجيدي. يتسم أبطال مسرحياته بخضوعهم لعواطف عنيفة لايستطيعون السيطرة عليها، ونزوعهم عبثا إلى فرض إرادتهم على الآخرين.

اليوم نفسه عدة مرات لكتابة حلقة جديدة عن خصومة عشق حامية.

وشيئا فشيئا صار العزوف عن دورة مياه الرجال أمرا مفضوحا. لم أعد أرى فيها غير مندهشين أو ثلاثة وكذلك نائب الرئيس. ولعلّه هو الذي استاء من الوضع وأعلم المسؤولين.

ولا شك أن ذلك كان مشكلا تكتيكيا حقيقيا بالنسبة إليهم: فمن ناحية، مهما كانت توجيهية كبار المسؤولين في الشركة واستبدادهم بالرأي، فهم لا يستطيعون أن يأمروا الموظفين بفكّ حصرهم في طابقهم وليس في الطابق الذي تحته. ومن ناحية أخرى، فهم لا يمكن أن يتسامحوا مع عمل التخريب هذا. ومن ثَمّ، لا بدّ من التحرّك، ولكن كيف؟

بطبيعة الحال، أُلقِيت تبعات ذلك العمل المُشين على عاتقي، فقد اقتحمت فوبوكي الخدر وقالت لي في غضب فائر:

- هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. أنت تتسبّبين مرّة أخرى في إزعاج من حولك.
- ماذا فعلت؟
- أنت تعرفين ذلك جيّدا.
- أقسم لك أنّي لا أعرف.
- ألم تلاحظي أنّ الرجال ما عادوا يجرؤون على ارتياد دورة مياه الطابق الرابع والأربعين؟ إنّهم يضيعون الوقت بالذهاب إلى مراحيض الطوابق الأخرى. وجودك يحرجهم.
- فهمت، ولكني لم أختر أن أكون هنا. أنت لا تجهلين هذا.
- وقحة! لو كنتِ قادرة على التّصرف بعزّة نفس لما كانت هذه الأمور لتحدُث.

قطّبت حاجبيّ:

- ما دخل عزّة النفس هنا؟

- إن كنت تنظرين إلى الرجال الذي يقصدون المغسل كما تنظرين إليّ الآن، فقد أجبتِ إذن عن سرّ سلوكهم.

انفجرت ضاحكة:

- اطمئنّي، أنا لا أنظر إليهم إطلاقا.

- لماذا يتضايقون إذن؟

- هذا أمر طبيعي. مجرّد حضور شخص من جنس مغاير يُخجلهم.

- ولم لا تستخلصين العبرة من ذلك؟

- أيّ عبرة تريدين أن أستخلصها؟

- ألاّ تكوني موجودة!

أضاء وجهي فجأة:

- فُصلتُ من مهمّة دورة مياه الرّجال إذن؟ أوه، شكرا!

- لم أقل هذا!

- لم أفهم إذن.

- لنقل... عندما يدخل أحد الرجال تنصرفين، ثم تنتظرين خروجه قبل أن تعودي.

- اتفقنا. ولكن عندما أكون في دورة مياه النساء، يتعذّر عليّ أن أعلم بوجود شخص ما في دورة مياه الرجال. إلاّ إذا...

- ماذا؟

رسمت على وجهي أكثر التعابير غباء وسذاجة.

- عندي فكرة! يكفي أن نركّب كاميرا في دورة مياه الرجال، مع شاشة مراقبة في دورة مياه النساء. وبذلك أكون على علم دائما متى يمكنني أن أدخلها!

نظرت إلي فوبوكي في اندهال.

- كاميرا في مراحيض الرجال؟ هل يحدث أن تفكّري قبل الإدلاء برأيك؟

- ما دام الرّجال لا يعلمون! تابعت بسذاجة.

- اسكتي! أنت حمقاء!

- أرجو ذلك. تصوّري لو أسندتِ هذا العمل إلى شخص ذكيّ.

- بأي حقّ تجيبينني؟

- ماذا أخشى؟ مستحيل أن تعيّنيني في منصب أدنى من هذا.

هنا، بالغت، حتى ظننت أن رئيستي ستُصاب بسكتة قلبية. طعنتني بنظرة وقالت:

- حذار! أنت لا تعلمين ماذا يمكن أن يقع لك.

- أخبريني.

- حاذري. وتدبري أمرك لمغادرة مراحيض الرجال عند قدوم أحدهم.

وخرجَتْ. وقد تركتني أتساءل إن كان تهديدُها جدّيًّا أم أنّه مجرّد خدعة.

أذعنت إذن للأمر الجديد، وارتحت لارتيادي بشكل أقلّ مكانا كان لي فيه طوال شهر حظوة اكتشافي أنّ الرجل الياباني ليس أنيقًا بالمرّة. فبقدر ما كانت المرأة اليابانية تعيش في رعب من أقلّ صوت تطلقه، كان الرجل الياباني لا يقيم لذلك أيّ وزن.

وبرغم تردّدي على المكان بصورة أقل، لاحظتُ أنّ الموظفين الكبار بقسم مشتقّات الألبان لم يستعيدوا عاداتهم في الطابق الرابع والأربعين: فالمقاطعة لا تزال مستمرة تحت تأثير رئيسهم، فلتبارك السماء السيد تينشي إلى الأبد.

في الواقع، منذ تعييني في هذا المنصب، أصبح الذهاب إلى دورة المياه عملاً سياسيًّا.

فالرجل الذي يواصل التردّد على دورة مياه الطابق الرابع والأربعين يريد أن يقول: «إنّ رضوخي للأوامر رضوخٌ مطلق، ولا يهمّني أن تقع إهانة الأجانب. ثم إنّ هؤلاء لا مكان لهم في شركة يوميموطو.»

أمّا من يرفض الذهاب إليها فهو يعبّر عن الرأي التالي: «احترام رؤسائي لا يمنعني من الحفاظ على فكري النقدي تجاه بعض قراراتهم. ومن جهة أخرى، أعتقد أنّ من مصلحة يوميموطو تشغيل الأجانب في بعض مراكز المسؤولية حيث يمكن أن يفيدونا.»

لم يحدث قطّ أن صارت بيوت الراحة مسرحًا لجدل إيديولوجي ذي رهان بهذه الأهمية.

كل إنسان يشهد يوم صدمته النفسية الأولى التي تقسّم وجوده إلى ما قبل تلك الصدمة وما بعدها، فتكون ذكرياته، حتى العابرة منها، كافية لتُثبّته في رعب لامعقول، حيوانيّ، لا يشفى منه أبدا.

كانت دورة مياه النساء في شركة يوميموطو رائعة لوقوعها تحت ضوء فرجة بلورية. هذه الفرجة احتلّت في دنياي مكانة أثيرة: كنت أقضي الساعات واقفة، وجبيني ملتصق بالبلور، ألهو برمي نفسي في الفراغ. كنتُ أرى جسدي يَهْوِي فأتشبّع بذلك السّقوط حدّ الانتشاء. لهذا، أؤكّد أنّي لم أشعر بالقلق ولو دقيقة واحدة في هذا المنصب.

كنت مستغرقة في ممارستي رميَ نفسي عبر النافذة حينما جدّت كارثة أخرى. سمعتُ الباب خلفي يُفتح. لا يمكن أن تكون سوى فوبوكي؛ ولكن الصوت لم يكن ذلك الصوت الواضح الوجيز الذي تُحدثه جلاّدتي عند دفعها الباب، بل هو صوت عنيف كأنّ الباب وقع هَدّه، والخطوات التي تلته ليست تلك التي يُحدِثها الخُفّان بل هي خطوات

ثقيلة هائجة لِلْييتي[1] المغتلم.

كل ذلك جرى بسرعة. التفتُّ فإذا جثّة نائب الرئيس تهجم عليّ.

ميكروثانية من الذهول («ربّاه! رجل - هذا إن صحّ أن كتلة الشحم تلك رجل - في مراحيض النساء!») ثمّ دخلتُ زمنًا من الهلع بغير نهاية.

قبض عليّ كما قبض كينغ كونغ على الفتاة الشّقراء وسحبني خارج بيت الراحة. كنت أشبه بلعبة بين يديه. بلغ خوفي ذروته حينما راح يجرّني إلى دورة مياه الرجال.

وعادت إلى ذهني تهديدات فوبوكي: «أنت لا تعرفين ما يمكن أن يلحقك.» لم تكن مجرّد خدعة إذن. سوف أدفع ثمن خطاياي. توقّف قلبي عن الخفقان وحرّر دماغي وصيّتي.

أذكر ما جال بذهني لحظتها: «سيغتصبك ثم يقتلك. ما في ذلك شكّ، ولكن حسب أي ترتيب؟ حبّذا لو يبدأ بقتلك!»

كان ثمّة رجل يغسل يديه في المغسل، ولكن ذلك للأسف لم يبد أنه غيّر شيئًا من تصميم السيد أوموشي، فقد فتح باب مقصورة وألقى بي على حوض الكنيف.

«ساعتك أزِفت»، قلت في نفسي.

بدأ يصرخ في اختضاض بثلاثة مقاطع حرفية. كان ذعري شديدا حتى أني لم أفهم شيئًا: ظننتُ أنّ ما يقوله يوافق صيحة «بَنْزاي!» لدى الانتحاريين في حالة محدّدة هي حالة العنف الجنسي.

وفي فورة صخبه مضى يصرخ بتلك الأصوات الثلاثة. وفجأة شعّ نور في ذهني فاستطعت أن أميّز قرقرته الصوتية:

- نو بيبة! نو بيبة!

---

(1) Yéti: إنسان الثلوج البشع الخلقة في فلكلور شعوب نيبال والتبت والهند المتاخمة لجبال الهيمالايا.

ومعناه باليابانية الأمريكية:

- نو بيبرا نو بيبرا[1]

كان نائب الرّئيس قد اختار إذن تلك الطريقة الرقيقة لينبّهني إلى غياب الورق الصحي في هذا المكان.

هرعت إلى خلوة المهملات التي أملك مفتاحها وعدت جريا ورجلاي ترتجفان وذراعاي مُثقلتان بلفائف الورق. تابع السيد أوموشي وضعي إياها في مكانها، وصاح بي بكلام لا يبدو أنه شكر، ثم دفعني خارج بيت الراحة لينعزل في المقصورة بعد أن صارت مجهزة.

لذتُ بدورة مياه النساء وروحي مزق مبعثرة. جثوتُ في ركن وبدأت أبكي في صمت.

ومن غرائب الصدف أن اختارت فوبوكي ذلك الوقت المحدّد كي تُقبل لتنظيف أسنانها بالفرشاة. لمحتها في المرآة، وفمها ملآن برغوة معجون الأسنان، تتابع بعينيها بكائي.

للحظة، كرهتُ رئيستي إلى درجة أنّي تمنّيتُ لها الموت. وفجأة خطر ببالي تطابق لقبها مع عبارة لاتينية تلائم الموقف، فكدت أصرخ بها: «ميمنتو موري!»[2]

قبل ذلك بستّ سنوات، كنت أعجبت بفيلم ياباني عنوانه «فوريو» - عنوانه الإنجليزي كان «ميري كريسماس مستر لورانس». أحداثه تدورُ خلالَ حرب المحيط الهادئ في حدود 1944، ويتحدث عن مجموعة من الجنود البريطانيين كانوا في الأسر داخل معسكر ياباني، حيث نشأت بين إنجليزي (ديفيد بووي) وقائد ياباني (ريويشي صَكاموطو) ما تسميها بعض الكتب المدرسية «علاقات مفارِقة».

---

(1) بالإنجليزية في الأصل: No paper! (لا يوجد ورق!)

(2) Memento mori: تذكّري أنّك ستموتين.

وجدت فيلم أوشيما مؤثّرا جدّا، ربما لصغر سنّي، لا سيّما مشاهد المواجهة المربكة بين البطلين. ينتهي ذلك بإصدار الياباني ضدّ الإنجليزي حكما بالإعدام.

من أحلى مشاهد ذلك الشّريط الطويل مشهد يرد قبيل النّهاية، حيثُ يتقدم الياباني ليتأمّل ضحيته التي قاربت الموت، وكان قد اختار لها من وسائل التّعذيب رَدمَ الجسد كلّه تحتَ الأرض ما عدا الرّأس الذي بقي معرّضا للشمس: تلك الخطة البارعة كان من شأنها أن تقتل الأسير بكيفيات ثلاث في الوقت نفسه - العطش والجوع وضربة الشّمس.

كانت خطة تلائم الموقف، فالبريطاني الأشقر كان ذا بشرة قابلة للشيّ. ولمّا أقبل القائد العسكري - في هيئته الصارمة الوقور ليترحّم على موضوع «علاقته المفارقة» كان لوجه المنازع لون شريحة لحم مشوية أكثر مما يلزم، حتى بدت محروقة قليلا. كان عمري ستّ عشرة سنة، بدا لي ساعتها أن الموت بتلك الطريقة دليل محبّة رائع.

لم أملك نفسي من ملاحظة أوجه الشبه بين هذه الحكاية ومكابداتي في شركة يوميموطو. صحيح أنّ العقاب الذي ألقاه مختلف، ولكني مع ذلك كنت أسيرة حرب في معسكر ياباني، وجلاّدتي كانت ذات جمال يعادل على الأقل جمال ريويشي صَكاموطو.

ذات يوم، كانت فوبوكي تغسل يديها حين سألتها عمّا إذا كانت شاهدت ذلك الفيلم. أجابت بنعمْ. لعلّي كنت يومئذ جريئة بامتياز إذ واصلت:

- هل أعجبك؟

- الموسيقى كانت جيّدة، ولكنّ من المُؤسف أن يروي حكاية زائفة.

(كانت فوبوكي، دون أن تدري، تمارس مراجعة ناعمة لوقائع التاريخ كما هو الشأن لدى شباب إمبراطورية الشمس المشرقة: فبنو

وطنها ليس لهم ما يؤاخَذون عليه في ما يخص الحرب الأخيرة، وما اجتياحهم آسيا إلاّ لحماية الأهالي ضدّ النازيين. ولم أكن حينها في موقع يسمح لي بالدخول معها في نقاش).

- في رأيي، يمكن أن نرى في ذلك استعارة، اكتفيت بالقول.

- استعارة ماذا؟

- لعلاقتنا بالآخر. للعلاقة بيني وبينك مثلا.

حدجتني بحدّة كأنها تتساءل عمّا وجدت هذه القاصرة ذهنيا مرة أخرى.

- أجل، تابعتُ. يوجد بيني وبينك الاختلاف نفسه الذي نجده بين ريويشي صَكاموطو ودفيد بووي. الشرق والغرب. خلف الصراع الظاهر يوجد الفضول المتبادل نفسه وسوء الفهم ذاته الذي يخفي رغبة حقيقية في التفاهم.

وبرغم اكتفائي بتوريات أقلّ ما يقال عنها إنها صوفية، أدركت أني طوّفت بعيدا.

- كلاّ، ردّت رئيستي في تحفّظ.

- لماذا؟

ماذا عساها أن تجيب؟ كانت أمام خيارات كثيرة: «لا يعتريني أي فضول نحوك»، أو «ليس لي أيّ رغبة في التفاهم معك»، أو «أي غرور أن تتجرّئي على تشبيه مصيرك بمصير أسير حرب!»، أو «كان بين ذينك الشخصين شيء من الغموض لا أتبنّاه بأي حال من الأحوال.»

ولكن لا. كانت فوبوكي حاذقة جدا. في نبرة هادئة معتدلة، اكتفت بأن قدّمت لي إجابة مفحمة بشكل يخالف أدبها الظاهر:

- أرى أنك لا تشبهين دفيد بووي.

وليس لي سوى الإقرار بأنها كانت على صواب.

كنت في هذا المنصب الذي صرت أشغله قليلة الكلام. لم يكن ذلك محظورا، ولكنّ قاعدة غير مدوّنة كانت تمنعني. الغريب أن المرء حينما يمارس عملاً لا أهمية له، فالوسيلة الوحيدة التي يحفظ بها كرامته هي السكوت.

فعلا، إذا ما لجّت منظّفة مراحيض بالهذر، فسوف يذهب الظن إلى أنها مرتاحة في عملها، وأنها تشغل المكان المناسب، وأن تلك المهمة تبهجها بشكل يُولّد لديها رغبة في التغريد.

أما إذا لزمت السكوت، فذلك معناه أنها تعيش عملها كإماتة جسد رهبانية، مغمورة في صمتها العنيد، تؤدي مهمّتها الاستغفارية للتكفير عن ذنوب الإنسانية. برنانوس[1] يتحدث عن «الابتذال الفادح للشرّ»؛ أمّا منظّفة الكنائف فهي تعرف الابتذال الفادح للفضلات، والمسألة هي نفسها خلف تباينات كريهة.

صمتها يعبر عن انذهالها. إنها الراهبة الكرملية لبيوت الراحة.

كنتُ ألزم الصمت إذن وأفكّر أكثر من المعتاد. على سبيل المثال، وجدت أنّ ما قمت به من مقارنة بيني وبين دفيد بووي له ما يبرّره، برغم عدم وجود شبه بيننا، إذ ثمة قرابة وضعية بين حالي وحاله، لأن إسنادي منصبا بهذه القذارة هو الذي جعل مشاعر فوبوكي نحوي غير صافية بالمرة.

كان لها مرؤوسون غيري، ولا أعتقد مُطلقًا أنّي الشخص الوحيد الذي تكرهه وتحتقره، فلربّما كانت تضطهد أناسا آخرين، ولكنها لم تكن تمارس قسوتها إلاّ عليّ. وتلك حظوة دون ريب.

قررت أن أرى في ذلك اصطفاءً.

هذه الصفحات قد تبعث على الظن بألاّ حياة لي خارج يوميموطو،

(1) برنانوس (1888-1948) ،كاتب فرنسي من أشهر رواياته «يوميات راهب في الأرياف»، و«تحت شمس إبليس».

وهذا ليس صحيحا، فلي خارج الشركة وجود أبعد ما يكون عن الفراغ والتفاهة.

غير أني قرّرت ألاّ أوردها هنا. أوّلا، لأن ذلك سيكون خارجا عن الموضوع. ثانيا، لأن تلك الحياة الخاصة كانت محدودة في الزمن، نظرا إلى ساعات دوامي.

ولكن الأهمّ أنّ ذلك كان لسبب ذي طبيعة انفصامية: عندما أكون في عملي بدورة مياه الطابق الرابع والأربعين، أجلي آثار قذارة موظف ما، كان من المستحيل عليّ أن أتصوّر أن خارج هذا المبنى، على مسافة إحدى عشرة محطة مترو، مكانٌ به أناس يكنّون لي الحب والتقدير ولا يرون أيّ علاقة بيني وبين فرشاة كنائف.

عندما يخطر ببالي، هنا، في هذا المكان، ذلك الجانب الليلي من حياتي، لا أملك إلاّ أن أفكّر في ما يلي: «لقد ابتدعت ذلك البيت وأولئك الأشخاص. إذا كنت تشعرين حقا بأنهم موجودون من زمن أبعد من عملك الجديد، فهو وهم. افتحي عينيك: ما قيمة أولئك البشر الأعزاء أمام خلود خزف المغاسل وبيوت الراحة؟ تذكّري صور المدن المقصوفة بالقنابل: الناس موتى، والمباني مدمّرة، ولكن المراحيض لا تزال شامخة تطاول عنان السماء، جاثمة على المواسير المنتصبة. عندما تنهي القيامة عملها، لن تكون المدن سوى غابات من الكنائف. الغرفة الهادئة حيث تنامين، الناس الذين تحبين، ليسوا إلا مبتكرات تعويضية يبتدعها ذهنك. إنّ السمة اللازمة للناس الذين يمارسون مهنة حقيرة هي ابتداعهم ما يسمّيه نيتشه عالما ما ورائيا، جنة أرضية أو سماوية يجهدون في الإيمان بها لكي يسلّوا أنفسهم عن وضعهم العفن. وبقدر ما يكون عملهم وضيعا يكون فردوسهم الذهني أجمل. صدقيني: لا وجود لأي شيء خارج مراحيض الطابق الرابع والأربعين. كلّ شيء هنا والآن.»

عندئذ أدنو من الفرجة البلورية، أتطلّع إلى محطّات المترو الإحدى عشرة وأنظر إلى نهاية الرحلة: لا بيت يظهر للعيان أو يتبدّى للذهن. «أرأيت؟ ذلك السكن الهادئ هو ثمرة خيالك.»

فلا يبقى لي ساعتها إلاّ أن ألصق جبهتي إلى البلّور وأرتمي عبر النافذة. أنا الوحيدة في العالم التي حدثت لها هذه المعجزة: ما أنقَذَ حياتي هو رمي نفسي عبر النافذة.

لا شكّ أنّ أشلاء من جسدي لا تزال حتى يومنا هذا متناثرة في المدينة كلها.

مرّت الأشهر. كلَّ يوم يفقد الزمن قوامه. كنت عاجزة عن تحديد ما إذا كان ينساب بسرعة أو ببطء. وبدأت ذاكرتي تعمل مثل طرّادة ماء، أجذبها في المساء، فتزيل فرشاة ذهنية آخر آثار القذارة.

تنظيفٌ شعائري لم يكن ينفع في شيء، إذ كان حوضُ عقلي يعثر على الوسخ كل صباح.

تعتبر بيوت الراحة مكانا ملائما للتأمّل، كما يلاحظه دون ريب أي شخص عادي. أمّا بالنسبة إليّ أنا، التي صارت راهبة كرملية، فهي مناسبة للتفكير. هناك فهمت حقيقة هامة: في اليابان، الحياة هي الشركة.

صحيح أنها حقيقة سبق أن تناولتها أبحاث اقتصادية عديدة خُصّصت لهذا البلد، ولكن شتّان بين أن تقرأ جملة في بحث وبين أن تعيشها. كان يمكنني أن أتشبّع بما تعنيه لدى موظفي شركة يوميموطو، وبما تعينه لي.

محنتي ليست أسوأ من محنتهم. هي فقط أكثر إذلالا. وهذا لم يكن كافيا كي أحسد الآخرين على مواقعهم، فقد كانت أشدّ بؤسا من موقعي.

المحاسبون الذي يقضون عشر ساعات في اليوم في نَسْخ الأرقام كانوا في نظري قرابين في مذبح إله يفتقد إلى السّموّ والسرّ الخفيّ. منذ غابر الأزمنة، نذر البسطاء حياتهم لحقائق تتجاوزهم: على الأقل، في ما مضى، كانوا يفترضون بعض القضايا الصوفية لهدر طاقاتهم، أمّا الآن، فما عادوا يستطيعون إيهام أنفسهم بذلك، إذ هم يهبون حياتهم مقابل لا شيء.

تُعدّ اليابان، كما هو معلوم، البلادَ التي تملك أكبر نسبة انتحار في العالم. وإنّي لأعجب كيف لا يكون الانتحار فيها أكثر تفشّيًا.

فباستثناء الشركة، ما الّذي ينتظر المحاسبين ذوي العقل المرهق بالأرقام؟ البيرة الإجبارية صحبة زملاء لهم يعانون مثلهم من تصدّع جماجمهم. ساعات في مترو شديد الزحام، زوجة قد نامت، أطفال قد سئموا، نعاس يسحب المرء كما تسحب بالوعة مغسل عند إفراغه، عطل نادرة لا يعرف أحد طريقة استعمالها: لا شيء يستحق اسم الحياة.

المصيبة أن هؤلاء النّاس يعتبرون محظوظين في أنظار العالم.

أقبل ديسمبر، شهر استقالتي. هذه الكلمة قد تثير الاستغراب: فأنا شارفت على نهاية عقدي، وهذا لا يعني إذن الاستقالة. ولكن بلى. لا يمكن أن أقنع بانتظار مساء ٧ يناير ١٩٩١ ثم الانصراف بعد أن أكون قد صافحت بضع أياد. حتى وقت قريب، لم يكن بإمكان المرء أن يترك وظيفته في بلد التزمنا فيه لأمد طويل، سواء بعقد أو من غير عقد، دون مراعاة الأصول.

ولكي أحترم التقاليد، كان علي أن أقدّم استقالتي في كل درجة من السلم الوظيفي، أي أربع مرّات، انطلاقا من أسفل الهرم: بدءًا بفوبوكي، ثم السيد صايطو، فالسيد أوموشي، وانتهاءً بالسيد هَنيدا.

كنت أتهيّأ ذهنيا لهذا القدّاس. وكان من البدهي أن أحترم القاعدة الكبرى، أي ألاّ أتذمّر.

أضف إلى ذلك أني تلقيت توصية أبوية: لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تسيء هذه القضية إلى العلاقات الجيدة بين بلجيكا وبلاد الشمس المشرقة. لا ينبغي إذن التلميح إلى أنّ يابانيا من الشركة أساء التصرف معي. الذرائع الوحيدة التي سوف يكون من حقي التعلّل بها - لأني سوف أدعى إلى شرح الأسباب التي دفعتني إلى التخلي عن منصب مجزٍ كهذا - هي ذرائع مسندة إلى ضمير المتكلم المفرد.

من زاوية منطقية صرف، لا يدع لي ذلك خيارات كثيرة: وهذا معناه أنني سأنسب لنفسي كل الأخطاء. أعرف أنّ مِثل هذا السلوك لا يخلو من هزل، ولكني أنطلق من مبدأ مفاده أن أَجَراء يوميموطو سوف يعترفون بالجميل حينما يلاحظون أني سرت عليه لأساعدهم على ستر فضائحهم، وسوف يقاطعونني هاتفين: «لا تذكري نفسك بسوء، أنت امرأة طيبة!»

طلبت مقابلة مع رئيستي، فحدّدت لي موعدا في آخر النهار بمكتب شاغر. وعندما حان لقاؤنا، همس شيطان بذهني: «قولي لها إنّك، بصفتك مدام بيبي، سوف تكسبين أكثر في مكان آخر.» وجدت صعوبة كبرى في كبح هذا الشيطان، حتى أني كنت نهبا لضحك مسترسل حين جلستُ قبالة الحسناء.

اختار الشيطان تلك اللحظة ليهمس لي هذا المقترح: «قولي لها إنك تبقين بشرط أن تزوّد المراحيض بصحن يضع فيه كل مستعمل خمسين ينّا.»

عضضت خدّي من الدّاخل كي أحافظ على جدّيتي، وكان ذلك من الصعوبة حتى أني عجزت عن الكلام.

تنهّدت فوبوكي:

- هه؟ عندك شيء تريدين قوله؟

ولكي أخفي فمي الذي يتلوّى، نكّست رأسي قدر المستطاع، وهو ما منحني مظهر خشوع لا شكّ أن رئيستي استراحت له.

- نحن نقترب من نهاية عقدي، وأودّ إعلامك، بمنتهى الأسف، أني لا أستطيع تجديده.

كان صوتي في نبرة خضوعه وخشيته هو صوت المرؤوسة النموذجية.

- آه؟ ولماذا؟ سألتني بجفاء.

يا للسؤال المدهش! لم أكن وحدي في تمثيل المسرحية. جاريتها بهذا الجواب الكاريكاتيري:

- شركة يوميموطو أتاحت لي فرصا عديدة لأثبت جدارتي، وسوف أكون مدينة لها ما حييت. ولكن للأسف الشديد، لم أكن في مستوى الشرف الذي أنيط بعهدتي.

اضطررت للتوقّف كي أعضّ خدّي من الداخل من جديد، لشدة الهزل الذي بدا في كلامي. أمّا فوبوكي فلم يبد أنها وجدت ذلك مضحكا إذ قالت:

- هذا صحيح. لماذا برأيك لم تكوني في مستوى المسؤولية؟

لم أتمالك نفسي من رفع رأسي للتطلع إليها في ذهول: هل من المعقول أن تسألني لماذا لم أكن في مستوى كنائف الشركة؟ هل أن حاجتها لإذلالي لا حدّ لها؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما هي إذن الطبيعة الحقيقية لمشاعرها نحوي؟

ركّزت عينيي في عينيها لكي لا أفوّت ردّة فعلها، وأنا أنطق بالفظاظة التّالية:

- لأنّني لم أكن أملك القدرات الذهنية اللازمة.

كان اهتمامي بمعرفة أيّ القدرات الذهنية ضرورية لتنظيف حوض قذر أقل من رغبتي في معرفة ما إذا كانت علامة خضوعٍ بمثل هذا الشكل المضحك ستلاقي هوى في نفس جلادتي.

ظل وجهها، وجه يابانية دمثة الأخلاق، سامدا جامدا بغير تعبير، وكان عليّ أن أعاينها بآلة تسجيل الزلازل لألحظ تقلصا طفيفا لفكيها أحدثه سؤالي: كانت تتلذذ.

لم يكن في نيّتها أن تقطع طريقَ لذّتِها إذ واصلت:

- هذا هو رأيي أنا أيضا. ما هو في تقديرك أصل هذا القصور؟

كان الجواب بدَهيًّا، فقد كنتُ أتسلّى كثيرا:

- إنّها دونيةُ العقل الغربي أمام العقل الياباني.

بدت فوبوكي معجبة بخضوعي أمام رغباتها، فقالت في ردّ سريع منصف:

- ثمة شيء من هذا القبيل بالتأكيد. ومع ذلك، لا ينبغي تهويل دونية معدّل العقل الغربي. ألا تعتقدين أنّ هذا القصور متأتّ خصوصا من خلل في دماغك أنت؟

- بالتأكيد.

- في البداية، كنتُ أظنّ أنك ترغبين في تخريب يوميموطو. أقسمي لي أنك لم تكوني تتعمّدين الغباء.

- أقسم لك.

- هل أنت واعية بإعاقتك؟

- نعم. وقد ساعدتني شركة يوميموطو في اكتشافها.

ظل وجه رئيستي منغلقا، ولكني أحسست من صوتها أن ريقها ينشف. كنت سعيدة لأنّي منحتُها أخيرا لحظات من المتعة.

- الشركة إذن أسدت لك خدمة جليلة.

- سأكون مدينة لها إلى الأبد.

أعجبني هذا الدور السريالي الذي جرى عليه حديثنا، حديث رفع فوبوكي إلى سماء سابعة لم تكن تتوقّعها. كانت حقّا لحظات بليغة الأثر.

«عزيزتي عاصفة الثلج، إن استطعتُ، بأقل تكلفة ممكنة، أن أكون وسيلة لمتعتك، فلا تتحرجي، انهالي عليّ بندفك الشرسة الصلبة وحبّات بَردك المنحوتة كأحجار الصوّان، أنا راضية أن أكون الفانية، التائهة في الجبل، التي تصبُّ عليها غيومُك المثقلة بالحنق جام غضبها، أقبل أن أتلقى على وجهي الآلاف المؤلّفة من رذاذها المجمّد، ذلك لا يكلّفني شيئا، إن حاجتك إلى حزّ جلدي بالشتائم لهو مشهد رائع، أنت تضربين بلا بارود، عزيزتي عاصفة الثلج، لقد رفضت أن تفمّي عينيّ أمام كتيبة رُماتك، لأنني من زمن بعيد كنت أترقّب أن أرى المتعة في نظراتك.»

ظننت أنها بلغت درجة الانتشاء لأنها ألقت عليّ هذا السؤال الذي بدا لي شكليا:

- وبعد؟ ماذا تنوين أن تفعلي؟

لم يكن في نيتي أن أحدّثها عن المخطوطات التي كنت أدوّنها. تخلّصت من سؤالها بردّ بسيط:

- قد أدرّس الفرنسية.

وإذا برئيستي تنفجر في ضحكة ازدراء:

- تدرّسين! أنت! هل تعتقدين أنك قادرة على التدريس؟

يا لعاصفة الثلج تلك! هي لا تعدمُ وسيلة.

فهمت أنها تريد المزيد، وليس من المعقول إذن أن أجيبها بغباء أن

لي دبلوم أستاذة.

نكّست رأسي:

- أنتَ على حقّ، أنا لا أزال غير واعية تماما بحدودي.

- فعلا. بصراحة، أي مهنة يمكن أن تمارسيها؟

وكان لا بدّ أن آخذها إلى ذروة الانتشاء.

نظام التشريفات الإمبراطوري في اليابان القديمة ينص على وجوب مخاطبة الإمبراطور في «ذهول ورعدة». لطالما بهرتني تلك الصيغة التي تناسب تماما أداء الممثلين في أفلام «الصّاموراي» عندما يخاطبون قائدهم، والصوت يربكه احترام فوق طاقة البشر.

لبست إذن قناع الذّهول وبدأت أرتعد. وجّهت نظرة يسكنها الرّعب إلى عيني المرأة الشّابة وقلت في تلعثم:

- هل تعتقدين أني أقبَل لجمع الفضلات؟

- نعم! قالت في حماس مبالغ فيه قليلا.

وتنفّست نفَسًا عميقا. لقد نجحت.

كنت مطالبة بعد ذلك بتقديم استقالتي إلى السيد صايطو. حدّد لي هو أيضا موعدا في مكتب شاغر، ولكنه، بخلاف فوبوكي، بدا غير مرتاح حين جلست قبالته.

- نحن نقترب من نهاية عقدي، وأودّ إعلامكم، بمنتهى الأسف، أني لا أستطيع تجديده.

تقبّض وجه السيد صايطو في تشنجات عديدة.

- شركة يوميموطو أتاحت لي فرصا عديدة لأثبت جدارتي، وسوف أكون مدينة لها ما حييت. ولكن للأسف الشديد، لم أكن في مستوى الشرف الذي أنيط بعهدتي.

اهتزّ الجسد الصغير الناحل للسيد صايطو اهتزازات موتورة،

وبدا شديد الحرج ممّا أروي.

- أميلي- صَنْ...

كانت عيناه تبحثان في كل زوايا الحجرة، كأنهما ستعثران على كلمة يقولها. أشفقت عليه.

- صايطو- صَنْ؟

- أنا... نحن... أنا آسف. لم أكن أريد أن تجري الأمور على ذلك النحو.

أن يعتذر ياباني اعتذارا صادقا، فهذا يحدث تقريبا مرة في القرن. ساءني كثيرا أن أرى السيد صايطو يرضى لنفسه بتلك الإهانة من أجلي، خصوصا أنّه لا ذنب له إطلاقا في عمليات فصلي المتتالية، وهذا حيف كبير.

- ليس ثمة ما يحملك على الأسف. لقد جرت الأمور على قدر الإمكان. ومروري بشركتكم علّمني كثيرا.

وهنا، بصراحة، لم أكن أكذب.

- هل لديك مشاريع؟ سألني في بسمة موتورة ومهذبة.

- لا تقلق من أجلي. سوف أجد حتما عملا ما.

مسكين هو السيد صايطو! كان عليّ أن أواسيه. برغم مركزه الوظيفي، كان يابانيا من بين آلاف آخرين، عبدا وجلادا في الآن نفسه، جلاّدًا أرعن في منظومة لعلّه لا يحبّها ولكنه لن ينتقدها أبدا، عن ضعف وقلة خيال.

ثم جاء دور السيد أوموشي. كانت فكرة الانفراد به في مكتبه تبعث في نفسي الرعب، ولكنّي أخطأت التقدير، فقد كان نائب الرئيس طيب الخاطر إلى حدّ كبير. هتف إذ رآني:

- أميلي- صَنْ!

قالها بتلك الطريقة اليابانية الرائعة التي تتمثّل في تأكيد وجود شخص ما بذكر اسمه علنا.

كان قد نطق وفمه ملآن. حاولت أن أسبر نوع الطعام الذي يلتهمه انطلاقا من صوته. لا شكّ أنه عجينيّ، ملتصق، من ذلك النوع الذي تستوجب إزالته من الأسنان تمريرَ اللسان لمدة دقائق طويلة. هو غير ملتصق كثيرا بالحنك كي يكون «كراميل»، كثير الدسم كي يكون خيط عرق سوس، سميك جدا كي يكون علكة «مارش مالو». إنه لغز.

اندفعتُ في سرد لائحتي المضجرة وقد صرتُ الآن مدرَّبةً:

- نحنُ نقترب من نهاية عقدي، وأودّ إعلامكم، بمنتهى الأسف، أني لا أستطيع تجديده.

كانت الحلويات موضوعةً على ركبتيه، يحجبها عني مكتبه. تناول منها قطعة قذف بها في فمه: أخفى إصبعاه الحمولة الملتهَمة دون أن أرى لونها، فحزّ ذلك في نفسي.

لا شكّ في أنّ نائب الرئيس لاحظ فضولي تُجاه أكلته لأنه نقل العلبة ليضعها عند مرمى بصري. فاجأني أن أكتشف شكولاتة ذات خضرة شاحبة.

بُهِتّ ورفعت إلى نائب الرئيس نظرة مليئة بالتوجّس:

- هل هذه شكولاتة من كوكب المرّيخ؟

جعل يصرخ من فرط الضحك ويَسترسل في اختضاض:

- كَسّايْ نو شوكوريطو! كَسّايْ نو شوكوريطو!

ومعناها: «شكولاتة من المرّيخ! شكولاتة من المرّيخ!»

قدّرت أنها طريقة غريبة لتسلّم استقالتي. وهذا الضحك المليء بالكولستيرول يضعني في موقف شديد الحرج. كان لا يفتأ يتزايد، فتتراءى لي لحظة سقوطه أمام عيني صريع سكتة قلبية.

كيف سأشرح ذلك للسلطات؟ «جئت أقدّم له استقالتي فهلك بسببها.» لن يقتنع أحد من موظفي يوميموطو بهذا التفسير: فقد كنت عاملة لا يعتبر رحيلها إلاّ خبرا سارّا.

أمّا حكاية الشكولاتة الخضراء، فلا يمكن أن يصدّقها أحد، فالمرء لا يموت بسبب لوحة شكولاتة حتى وإن كانت في لون الكلوروفيل. سوف يتّضح أنّ فرضية القتل هي الأجدر بالتصديق. ولن تعوزني الدوافع.

باختصار، كان عليّ أن أتمنّى ألاّ يموت، لأنّي سأكون المتهمة المثلى.

كنت أستعدّ للإفصاح عن مقطعي الثاني كي أضع حدّا لإعصار الضّحك ذاك، حين قال لي الرجل السمين مؤكدا:

- هذه شكولاتة بيضاء بالبطيخ الصيفي الأخضر، وهي من اختصاص هُكّايدو. لذيذة. لقد استحضروا بامتياز طعم البطيخ الياباني. خذي، جرّبي.

- لا، شكرا.

كنت أحبّ البطيخ الصيفي الياباني، ولكن مجرّد التفكير في هذا الطعم مخلوطا بطعم الشكولاتة يجعلني أشعر بالتقزز فعلا.

أغضب رفضي نائب الرئيس لأسباب غير واضحة. أعاد أمره بأسلوب مهذّب:

- ميشي أجاطِّهْ كودَصايْ!

ومعناها: «من فضلك، شرفيني بالأكل.»

رفضت.

بدأ يرتقي بسرعة درجات اللغة:

- طابيتِّهْ!

أي: «كلي!»

رفضت.

صرخ:

- طابِرو!

أي: «ابلعي!»

رفضت.

انفجر غاضبا:

- اسمعي، طالما أن عقدك غير منتهٍ، فعليك أن تطيعيني!

- ماذا يهمّك أن آكل أو لا آكل؟

- وقِحة! ليس من حقك أن تسأليني! أنت مطالبة بتنفيذ أوامري!

- وماذا أخشى إن رفضت؟ أن أطرَد؟ هذا يناسبني.

لم تكد تمضي لحظة حتى أدركت أني أسرفت في جرأتي. يكفي أن أرى قسمات السيد أوموشي كي أفهم أن العلاقات الجيدة بين بلجيكا واليابان كانت تمر بامتحان عسير.

بدا أنه على وشك الأزمة القلبية، فلذت بكانوسّا[1]:

- أرجو أن تعذرني.

استعاد من الأنفاس ما يكفي كي يزأر:

- ابلعي!

كانت تلك عقوبتي. من كان يتصوّر أنّ أكل شكولاتة خضراء قد يدخل في نطاق السياسة الدولية؟

مددت يدي إلى القرطاس، وأنا أفكر أنّ الأمور قد تكون تَمّت على هذا النحو في جنّات عدن: لم تكن لحوّاء أي رغبة في قضم التفاحة،

(1) كانوسا ارتبطت بحادثة تاريخية تمثلت في اللعنة التي لزمت هنري الرابع بعد إزاحته البابا غريغوار السابع، حتى عاذ إليه ذليلا ورابط أمام قصره بكانوسا طالبا منه الصفح. والمقصود بها هنا إبداء الندم والتوبة والخضوع. (المترجم).

ولكن ثعبانا سمينا كان يمر بأزمة سادية مفاجئة وغير مفهومة أرغمها على ذلك.

تناولت قطعة مربعة مخضرّة اللون ووضعتها في فمي. كان ذلك اللون بالذات هو الذي يصيبني بالتقزّز. مضغت فإذا طعمها، يا للخجل، أبعد ما يكون عن المرارة.

- لذيذة، قلت غصبا عني.

- ها! ها! حلوة شكولاتة المرّيخ، أليس كذلك؟

كان قد حقّق نصرا مبينا. وعادت العلاقات اليابانية البلجيكية طيبة كما كانت.

عندما أزلت عن أسناني سبب النزاع، شرعت في الجزء الثاني من استعراضي:

- شركة يوميموطو أتاحت لي فرصا عديدة لأثبت جدارتي، وسوف أكون مدينة لها ما حييت. ولكن للأسف الشديد، لم أكن في مستوى الشرف الذي أنيط بعهدتي.

ذهل في البداية، لعله نسي تماما ما جئت أحدّثه فيه، ثم انفجر ضاحكا.

تصوّرتُ، ببراءتي المهذّبة أنّ إذلال نفسي على هذا النحو إنما من أجل سلامة سمعتهم، وأن في حطّي من قدري بشكل لا يكون لي فيه أي مأخذ أوجّهه إليهم ما سوف يثير لديهم اعتراضا مهذبا من قبيل: «بلى، بلى، لقد كنت في مستوى المسؤولية!»

غير أنها المرة الثالثة التي أستظهر فيها بخطبتي المتفصّحة دون أن يصدر عنهم أي نفي. ففوبوكي لم تعترض على نقائصي، لا، بل إنها أكدت على أن حالتي أخطر من ذلك بكثير. والسيد صايطو، برغم ضيقه من مكابداتي، لم يضع موضع شكّ صحّة قدحي لذاتي. أمّا نائب

الرئيس، فهو لم يكتف بسكوته عن مزاعمي، بل تلقاها بحمية ساخرة.

هذا التّشخيص ذكرني بعبارة أندري موروا: «لا تذكر نفسك بسوء كبير، فقد يصدّقونك.»

سحب الغول من جيبه منديلا وجفف دموع ضحكه، وأمام ذهولي تمخّط، وهو ما يعدّ في اليابان قمّة السلوك السيّئ. هل انحدرت إلى درك وضيع حتى صار الواحد منهم يفرغ أنفه بلا حياء أمامي؟

ثم تنهّد:

- أميلي- صَنْ!

ولم يضف شيئا. استنتجت أن المسألة قضي أمرها في نظره. نهضت وودّعته، ثم خرجت لا ألوي ولا أنثني.

لم يبق لي غير الرّبّ.

لم أكن يابانية في سلوكي إلاّ عند تقديم استقالتي للرئيس. وأنا واقفة أمامه، كان ضيقي صادقا ينعكس في بسمة متقبّضة يتخلّلها فواقٌ مكتوم.

استقبلني السيد هَنيدا برقّة فائقة في مكتبه الشاسع ذي الأنوار الساطعة.

- نحن نقترب من نهاية عقدي...

- طبعا. أنا أتفهّمك.

كان أوّل من علّق على قراري بإنسانية.

- شركة يوميموطو أتاحت لي...

وإذا به يردّ على الفور:

- ليس صحيحا، أنت تعرفين ذلك جيدا. لقد أثبت تعاونك مع السيد تينشي أنّ لك قدرات في المجالات التي تناسبك.

آه، على الأقل!

- لم يحالفك الحظّ، ولم تأتي في الوقت المناسب. أنت محقّة في قرارك ولكن لتعلمي أنك إن غيرت رأيك في يوم ما فسوف نرحّب بك. بكل تأكيد، لست الوحيد الذي يفتقدك.

كنت على يقين من أنه مخطئ في هذه النقطة، ولم يكن ذلك ليقلّل من تأثّري. كان يتحدّث بطيبة مقنعة إلى حدّ جعلني أشعر بالحزن لمغادرتي تلك الشركة.

العام الجديد: ثلاثة أيام راحة شعائرية إجبارية. في هذا الخمول ما يصدم اليابانيين نفسيا.

طوال ثلاثة أيام بلياليها، لا يسمح حتى بالطبخ، حيث يأكلون وجبات باردة معدّة سلفا، موضوعة في علب مبرنقة بديعة الصنع.

من بين أكلات الأعياد تلك، توجد الأوموشي، وهي حلويات من الأرز كنت في ما مضى أستطيبها. هذا العام، لم أستطع أن آكل منها لأسباب تتعلّق باسم شخص.

كان يداخلني يقين كلما قرّبت من فمي قطعة أوموشي بأنه سيصرخ: «أميلي- صَنْ!» وينفجر في ضحكة جشّاء.

عدت إلى الشركة لثلاثة أيام عمل فقط. كان العالم كلّه يصوّب أنظاره إلى الكويت ولا يفكّر إلاّ في يوم 15 يناير.

أمّا أنا فكنتُ أصوّب نظري نحو الفرجة البلورية جنب بيوت الراحة، ولا أفكّر إلاّ في يوم 7يناير: مهلة إنذاري النهائي.

صبيحة السابع من يناير، لم أصدّق أني انتظرت هذا اليوم طويلا. خُيّل إليّ ساعتها أني في يوميموطو منذ عشرة أعوام.

قضيت يومي في دورة مياه الطابق الرابع والأربعين في جوّ من الخشوع الديني: كنت أؤدي أكثر الحركات بساطة بمراسم كهنوتية،

وأنا أكاد أشعر بالأسى لأني ما عدت قادرة على مراجعة كلام الكرملية العجوز: «في الكرمل، أصعب الأعوام هي الثلاثون الأولى.»

في حدود السادسة مساء، وبعد غسل يديّ، ذهبت لمصافحة بعض الأفراد الذين تركوا لدي انطباعا بأني في نظرهم إنسان، لاعتبارات مختلفة. لم تكن فوبوكي من بينهم، وهو ما أسفت له، خصوصا أني لا أضمر لها أي ضغينة. ولكني أرغمت نفسي على عدم مصافحتها صونا لعزة النفس. في ما بعد، أيقنت أنه تصرف أحمق، فقد كانت مفاضلةُ الكبرياء على تملّي وجهٍ فريدٍ سوءَ تقدير.

في السادسة والنصف مساء، عدت مرة أخيرة إلى الكرمل. كانت دورة مياه النساء خالية. لم تَحُل بشاعة ضوء النيون دون تقبض قلبي: سبعة أشهر -من حياتي؟ كلا، من وجودي على هذا الكوكب- انقضت هنا. ليس ثمة ما يدعو إلى الحنين، ومع ذلك، أحسست بحنجرتي تنعقد.

اتجهت نحو النافذة بدافع غريزي. ألصقت جبيني على البلور وأدركت أن ذلك هو ما سوف أفتقده: ليس بوسع كل الناس أن يشرفوا على المدينة من علوّ الطابق الرابع والأربعين.

كانت النافذة هي الحدّ الفاصل بين الضوء الفظيع والظلمة الرائعة، بين بيوت الراحة واللانهاية، بين الصحّي وما يستحيل غسله، بين طرّادة الماء والسماء. إن أبسط إنسان على وجه الأرض سيكون له نصيب من الحرية، طالما وُجدت نوافذ.

وللمرة الأخيرة، ارتميت من النافذة، وشاهدت جسدي يهوي.

ولما ارتويت من رمي نفسي عبر النافذة، غادرت عمارة يوميموطو، ولم يرني فيها أحد بعد ذلك أبدا.

بعد أيام، عدت إلى أوروبا.

في 14 يناير 1991، بدأت بكتابة مخطوط عنوانه «طهارة القاتل».

يوم 15 يناير 1991، كان تاريخ نهاية الإنذار الأمريكي للعراق. يوم 17 يناير اندلعت الحرب.

يوم 18 يناير، في الطرف الآخر من المعمورة، بلغت فوبوكي موري عامها الثلاثين.

كان الزمن، في وفائه لعاداته القديمة، قد مرّ.

عام 1992 صدرت روايتي الأولى.

عام 1993، تلقّيت رسالة من طوكيو. كان النص كالتالي:

«أميلي- صَنْ

تهانيّ.

موري فوبوكي»

كان لهذه الكلمة ما يبعث على البهجة. ولكنها كانت تحتوي على جزئية أسعدتني إلى حدّ كبير: كانت مكتوبة باللغة اليابانية.

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلِّف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

ظلّ الريح
(مقبرة الكتب المنسيّة)
المؤلّف: كارلوس زافون
البلد: إسبانيا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

أيّ قدرة لهذا الروائي الماكر على التلاعب بهذا الحشد الغفير من الشخصيّات؟ أيّ براعة تجعله يحوّل كلّ عنصر مَهْما كان بسيطا إلى متعة خالصة؟ لأوّل مرّة يعبث بي عمل روائيّ بمثل هذا الشكل، وكلّما توقّعت النصّ سائرا في طريق وجدتني على الضفّة الأخرى، فيما الكاتب يرسل إليّ تحيّاته من بعيد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. لكأنّنا إزاء علبة باندورا، كلّ علبة تخفي علبة أخرى، ومع كلّ علبة تزداد شرور الكاتب وهو يتلاعب بقارئه دون رحمة، مُقدّما لكلّ صنف من القرّاء ما يحتاج إليه: حبكةً بوليسية للقارئ البسيط تجعله يلهث لمعرفة الأحداث، مسحةً رومانسية تجعل قارئا آخر متورّطا في دوّامة من قصص الحب، قطعةً من تاريخ الحرب الأهلية في إسبانيا للمؤرّخ، وحشدًا من الرموز لعلاقة الكتابة بمفاهيم اليُتم والوجود والحياة.. لن أكشف الحكاية فهي على المتعة العالية التي تمنحها للقارئ لا تشي ببراعة زافون السرديّة فحسب بل تضعنا وجها لوجه أمام حشد من الأسئلة والمفاهيم.

إنّنا قبالة عمل سرديّ عظيم، ولم يكن وزير خارجية ألمانيا الأسبق يوشكا فيشر يبالغ وهو يتحدّث عن كتاب في 521 صفحة، حين قال: «ستقرأ الرواية في جلسة واحدة، ولن تنام الليل وأنت تتعقّب ظلّ الريح. لن يسمح لك زافون بأن تترك الكتاب قبل أن تبلغ الجملة الأخيرة» ولعلّه كان يقصد: «قبل أن ترتشف الجملة الأخيرة»

شوقي العنيزي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلّف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

حليب أسود

المؤلِّفة: إليف شفاق
البلد: تركيا
ترجمة: أحمد العلي

ليس«حليب أسود» مجرّد رحلة في تجربة اكتئاب ما بعدَ الولادة، أو سيرة ذاتية لأمٍّ مُبدعة تَصادَفَ أن توقّفَ قلمها عن إنجاب الكلمات عندما أنجبت طفلها، بل هو تجربةُ وَعيٍ لِمَا يُمكن أن يحدُثَ حين تتصارع الأنثى التي تَلِدُ الكلمات والأنثى التي تَلِدُ الأطفال، وكيف يُشَقّقُ هذا الصراعُ المبدعةَ إلى كيانات مُتعدّدة تحرمُها من السلام والصفاء وحالة الرضا، ويجعلها كما كتبَت شفاق: في هَوَسٍ دائمٍ بشأن الدرب الذي أهمَلَت اختياره.

وإلى جانب المتعة وخِفّة الروح والطرافة في هذا الكتاب، فإنّه يُعيننا نحن النساء لنتصالح مع ذواتنا المتشظيّة إلى ذواتٍ وذواتٍ، وبأسلوبٍ لا يُثير الأسى.

تكتبُ ألِف شفَق ببراءةٍ تُشبه براءةَ أفلام الكارتون التي تُصوّرُ الجميعَ أبرياء، أو بشرًا في النهاية، وتجعلنا نتعاطف معهم.

ألف شفَق قلمٌ أصيل، لا يتبع ما يعثُرُ عليه في السياق ولا يُروّج له، بل يكتُبُ ما اختبرَهُ بنفسه مع احترام تجارب الآخرين. وقد برعَت شفَاق وأثبتت أنّها شُجاعةٌ وطَيّبةٌ مثل بطلات الحكايات الخرافيّة اللاتي يفُزنَ في النهاية.

د. بدرية البشر

السنة المفقودة

المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

«هي رواية صغيرة، ولكنها عبقرية، فيها تتكلّم رسوم سالفاتييرا من تلقاء ذاتها لتقول لنا: كان يا ما كان...»

صالح علماني

«إنها رواية الزهد اللاتيني، رواية الصمت وخيبة الأمل أيضا. سالفاتييرا الذي سيصاب بالخرس في طفولته، بعد سقوطه من على ظهر حصان، سيهتدي إلى لغة أخرى بعد أن فقد نعمة الكلمات، وسيقضي ستين سنة في رسم لوحة واحدة طولها أربعة كيلومترات. لم يكن يفكر في عرضها على المتاحف وتجّار الفن وهواة الأرقام القياسية، لم يلجأ إلى الإعلام، لم يكن معنيا على الإطلاق بمكبرات الصوت والصورة في عالم الفن. لقد كان سالفاتييرا منشغلا بالرسم فقط، بتلك اللوحة التي ظلت تتدفّق على طول السنين ولم يوقفها سوى الموت.»

عبد الرحيم الخصّار

«تكون في راحة من عقلك وبمجرد أن تتصفّح الكتاب يختلّ توازنك، وتمضي في نهر الحكاية مسحوبا باندفاع التيّار، بعيدا عن غرفتك، عن طاولتك وكرسّيك ومصباح مكتبك، وأنت تجذّف خلف الرّاوي باحثا عن لفافة الرسم الضائعة. تجتاز قرى أرجنتينية، تقابل صيّادين ومهرّبين، تمشي على طول أنهار موحلة وتركب عبّارة صدئة في جنح الظلام قبل أن تهتدي إلى أنّك كنتَ بصدد البحث عن قصيدة رسمها بيدرو ميرال وكتبتها عيناك على الطريق وأنت تقرأ».

زياد عبد القادر

أسرار

المؤلّف: كنوت هامسُن
البلد: النرويج
ترجمة: أماني لازار

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى إلى الحياة ليكتب نصًّا أدبيًّا نُشر تحت اسم كنوت هامسُن؟ أم أن هناك بالفعل روائيًّا آخر يستطيع أن يصل إلى ذروة التحليل النفسي لشخوص أبطاله بقدر ما كان يفعل دوستويفسكي؟ لقد ذهب أحد الروائيين إلى حدود الإقرار بأن هامسُن تخطّى دوستويفسكي نفسه، قد لا أتفق معه بشكل كامل ولكن- بعد قراءة «أسرار»- يمكن أن أقول إنّ هامسُن وصل إلى مناطق مخيفة في النفس البشرية لم يصل إليها دوستويفسكي نفسه. لم أتخيل بأنّي سأقول هذا الكلام في يوم من الأيّام، ولكن هامسُن فعلها بجدارة، وكانت مفاجئة بالنسبة إليّ، مفاجأة لم أتخيّلها حقًّا.

في هذه الرواية لا يسرد كنوت هامسُن بل يضرب، وكأنّ ما يُكتب به النصّ مطرقة وليس قلمًا. مطرقة تحطم وتبعثر. وهذا الضرب السردي مكتوب بلغة عذبة وشعرية للغاية.

يحفر هامسُن في أعماق شخصيّاته ولا يكفّ عن الحفر... من قال إنّ هناك عمقًا قد ينتهي؟ ففي النهاية لا وجود لغير هاوية سحيقة، هاوية لا قرار لها!

ممدوح عبد الله

بوذا في العالم السفليّ

المؤلّف: جولي أوتسوكا
البلد: أمريكا-اليابان
ترجمة: أبو بكر العيّادي

هي أوديسة من نوع خاص. إبحار إلى ديار بعيدة دونما أمل في العودة. ارتحال مجموعة فتيات معدمات من أرياف اليابان وقراه المنسية بحثا عن زوج يحفظ لهن عيشا غير الذي كن يعشنه في مزارع الأرز البائسة. بنات أغلبهن عذارى يحملن صور أزواج لا يعرفنهم، وألبسة تقليدية بسيطة، وأشياء أخرى حميمة يحفظنها بين دفوف كتب من نوع «مرحبا أيتها الآنسات اليابانيات!» أو «دليل المسافر إلى أمريكا» ويخبّئن بين الضلوع أسرارا لا يبحن بها لأحد، ورغائب ومخاوف. رغائب أنثوية بفرحة العمر، ومخاوف منح الجسد لرجل مجهول في بلد مجهول.

رحلة شاقة في قعر باخرة قديمة تمخر عباب المحيط الهادئ باتجاه كاليفورنيا، تتجاب حين أرست مراسيها عن واقع مرّ يرديهنّ إلى درك وضيع، حيث يكتشفن أن الواقع غير ما حملته الرسائل، وأن الصور المرسلة قديمة يرجع عهدها إلى عشرين عاما، وأن الأزواج الموعودين عمال بسطاء في مزارع القطن والخضروات...

هذه الأوديسة هي حلقة منسية من تاريخ اليابان الحديث، أعادتها إلى الذاكرة جولي أوتسوكا، وهي كاتبة أمريكية من أصل ياباني، حازت بفضل هذه الرواية جائزة فوكنر للرواية سنة 2011 وجائزة فيمينا للرواية الأجنبية في فرنسا سنة 2012.

أبو بكر العيادي

قطار الليل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

منذ الصفحات الأولى لـ«قطار الليل إلى لشبونة» يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كان صحيحا أننا لا نعيش إلّا جزءا صغيرا مما يعتمل في داخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

رحلة في أقاصي الليل

المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة

«ستكون بمثابة الخبز لقرن كامل من الأدب.»

سيلين متحدثا إلى ناشره

«هناك كتب يصعب تفسيرها: تبدو كأنها خرجت من حيث لا ندري، ولكن عندما نقرؤها، سرعان ما نتساءل كيف عاش العالم من دونها. و«رحلة في أقاصي الليل» تنتمي إلى تلك السلالة النادرة: بداهتها توقع الاضطراب في حياة كلّ قرائها. لغتها الخام تغيّر طريقتكم في الحديث والكتابة والقراءة والحياة. لا يمكن لأحد أن ينجو منها. كم أحسد منكم أولئك الذين لم يقرؤوا بعد هذه اللوحة الملحمية»

فريدريك بيغبيدي

إنّ «رحلة في أقاصي الليل» لسيلين أهم رواية فرنسية بالنسبة إلينا... لقد حفظنا عن ظهر قلب مقاطع كاملة منها. كانت فوضويّتها قريبة من فوضويتنا نحن. ولقد كُتبت نكاية في الحرب، في الاستعمار، في الرَّداءة، في التعابير الشائعة، وفي المجتمع، كُتبت بأسلوب أخّاذ فتننا جميعا. لقد نحتَ سيلين آلة جديدة: كتابة أعلق بوهج الحياة من الكلمات. ولقد قلبت أسلوب سارتر رأسا على عقب.»

سيمون دي بوفوار

ذئب البراري

المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

عمل سرديّ باهر من أبرز سماته الإحاطة بمرحلته الزمنيّة الحرجة والتغلغل في ما وراء الصمت، ولكنّ الأسئلة التي تطرحها الرواية ما تزال متلبّسة بالكائن الإنسانيّ الممزّق بين ذئبيته وتوحّشه وبين ما يطمح إلى بلوغه من كمال وسكينة... أسئلة تنتقل بكلّ وهجها من جيل إلى آخر، من مثقّف عاش ما بين حربين رهيبتين إلى مثقّفين يتوغّلون في القرن الواحد والعشرين زمرةً من الغرباء المهمّشين المغيّبين بشتّى الوسائل عن عصرهم ومجتمعهم....

إنّنا أمام «ذئب» هارب من وليمة دم ، تنبّأ بالحرب الرهيبة القادمة وخيّر وحشة العزلة على المشاركة في الجريمة الكبرى.

لذلك سيجد إنسان اليوم المهدّد بموجات التوحّش والتطرّف والانغلاق ومقت الآخر، صوتا يمثّل هواجسه ومخاوفه، ووجها يشبهه في غربته ووحشته، إنّ ما اعتمل في باطن «هاري هاللر» من اضطرابات نفسيّة عاصفة وما عاشه من خيبات وآلام، يحدث لأغلب المحشورين اليوم في الغابات المدنيّة التي تُطلق عليها جزافا أسماء «أوطان» و«دول»، وما هي في الحقيقة غير أطر لصراع محموم بين قوى مستضعفة وقوى جائرة وشديدة الجشع ، هذا ما تفضحه الرواية وتعرّيه دون السقوط في تقريريّة فجّة أو خطاب أجوف، فقدر المبدع أن يخلق من جرحه وردة ، لا أن يعتنق الصراخ فيزيد العالم ضجيجا ...

محمّد الهادي الجزيري

انقطاعات الموت

المؤلّف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

هذه الرّواية لا تنظر في عينيك، لا تواجهك، بل تنظر معك في الخلفيّة حيث تحدث الأشياء الأكثر قذارة وعنفا. تُنير تلك المنطقة المخفيّة السّوداء المُخيفة، وتكشف بشاعة حياة الكائن البشري الّذي يمعن في التّظاهر بنقائه وصدقه وبراءة عنصره. نصّ ينتزعك من ذاتك، يخترقك في لين وشاعرية، محترما كلّ قناعاتك، قبل أن يطيح بها هازئا ضاحكا.

تتساءل وأنت تقرأ: من أين يأتي ساراماغو بكلّ هذه القدرة على التّحقير من شأن الكائن؟ كيف يتسنّى له العصف بكلّ إرث المواضعات التّافهة والمشترك القيمي القائم على الكذب؟ كيف يسيطر على هذا الحشد من الأفكار ويسيّر عمارته السّرديّة بهذه السلاسة والحذق؟

يطرح الكتاب أسئلة لا حصر لها في علاقتنا بالزّمن. إنّنا نموت دائما في الأخير.. ماذا لو توقّف الموت عن قتلنا؟ ما معنى الموت أصلا؟ ولماذا نموت؟

بعد القراءة أنتَ لستَ الشّخصَ الذّي كُنتَهُ، كُنتَ تعرف قبل القراءة أنّ الموت والحياة شقيقان، لكنّك لم تكن تستشعر المأساة والكارثة في غياب الموت مرّة واحدة وإلى الأبد. كنت تعرف أنّك مُستغَلّ، ولكن وأنت تقرأ ستعرف أنّك كنت دائما نهبا لأنذال سرقوك باسم الله وباسم القيم وباسم الموت أيضا، ومارسوا ضدّك نذالاتهم كلّها. بعد القراءة تتيقّظ النّمرة التّي علّموها النّوم في أعماقك، تنبت لها في الظّلمة أنياب ومخالب.. وتنقضّ.

نصر سامي

ساعي بريد نيرودا

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

هي حقّا رواية بطعم الفاكهة، تبدؤها فإذا أنت متورّط فيها حدّ المتعة، تنال من كلّ حواسّك وتسحبك من عالمك إلى عالمها فلا تستطيع لها تركا ولا منها فكاكا قبل أن تقرأ الجملة الأخيرة .. رواية شحيحة الشخصيّات قليلة الأحداث يمكن تلخيصها في كلمة «نيرودا» وهو ممدّد على فراش المرض ردّا على ساعي بريده «ماريو خيمينث» وهو يسأله عمّا يشعر.. فيجيبه بكلّ بساطة وعمق: «أشعر بأنّي أحتضر. وباستثناء ذلك ليس هناك ما هو خطير».

أيّة مفارقة أجمل من لعبة اللغة توحي وتسخر وتمكر؟ لغة هي النّسيج واللّباس والرّائحة والالتباس. تلتبس عليك الأحداث فلا تعرف ما الواقع وما الخيال وما السّحر. وتلتبس عليك الشّخوص والشخصيّات والأشخاص فتتساءل: من البطل؟ ولا جواب .. كلّهم أبطال ولا بطل.

نحن إزاء رواية علامة في تاريخ الأدب العالميّ. علامة تنساب المتعة مع سطورها كخدر الحبّ في العروق لذلك فهي تكره القارئ العاديّ وتنشد قارئا عاشقا شبقا لا ينتهي من الصفحة حتّى يستزيد إلى أن يفقد الوعي... أي يسترجعه.

ظافر ناجي

زوربا اليوناني

المؤلّف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

مِيتتان لرجل واحد

المؤلّف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

الحب والظلال

المؤلّف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

عرس الشاعر

المؤلّف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

لاعب الشطرنج

المؤلّف: ستيفان سفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

نرسيس وغودموند

المؤلّف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

الحب في زمن الكوليرا

المؤلّف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني
(الترجمة العربيّة الكاملة 2016)

رابطة الشعراء الأموات

المؤلّف: نانسي.هـ. كلينباوم
البلد: أمريكا
ترجمة: أماني لازار

ألعاب خطيرة

المؤلّف: أغوز آتاي
البلد: تركيا
ترجمة: بكر صدقي

أُميلي نوتومب

ذهول ورعدة

ذهول ورعدة هي تجربة حياتية فريدة عاشتها الكاتبة بحلوها القليل ومرّها الذي يملأ الصفحات، تصوّر من خلال انحدارها إلى درك وضيع في إحدى الشركات الكبرى، الوجهَ الآخر لليابان، حيث تمثّل الشركة صنوا للحياة، بل هي الحياة، تتكلّس أمامها العواطف، وتغدو العلاقات الإنسانية أشبه بلقاءات عابرة مخطوفة من زمن هارب.

تشرّح أميلي نوتومب عالم الشغل في يوميموطو، بأسلوب ساخر يتسم بالاقتصاد في السّرد، وتكثيف الحوار. يوميموطو الشركة اليابانية التي تلتهم العاملين فيها، وتجعل كلّ واحد منهم جلاّدًا وضحية في الآن نفسه، باستثناء أميلي الأوروبية المتعاقدة التي لا تزال تعيش على مخزون عاطفي من أيام طفولتها بكَنْصاي، إحدى المقاطعات اليابانية، حيث ولدت وترعرعت. فموقعها في أسفل السلم الوظيفي لم يكن يسمح لها إلا بتلقي الأوامر، حتى المهين منها... دون نقاش.

هذه الرواية، التي حازت الجائزة الكبرى للأكاديميّة الفرنسيّة لعام 1999، ونقلها المخرج الفرنسي ألان كورنو إلى السينما عام 2002، هي أكثر أعمال نوتومب التصاقا بسيرتها الذاتية.

أبوبكر العيّادي


ISBN: 978-9938-833-54-6

